حُلمٌ عابِر

مؤمنة محمود

رواية

تدقيق
راما عيسى محمد

تأليف

مؤمنة محمود

الإهداء

إلى تلك الأُميَّة التي لا تفقهُ من القراءة والكتابة شيئاً،
فكان لها الفضلُ الأكبرُ في تعليمي وتشجيعي لأبدأ أوَّل
أعمالي..
إلى أُمّي المربّية الفاضلة
أُهديها أُولى رواياتي..

"لا يكفُّ المرءُ عن الحُلم حين يُصبحُ عجوزاً، بل يُصبحُ عجوزاً حين يكفُّ عن الحُلم".

غابرييل غارسيا ماركيز

شكراً

لذلك الذي لولا خذلانُهُ وخيباتُهُ المُتلاحقة ما كُنتُ عُدتُ
إلى الكتابة من جديدٍ بعد انقطاعٍ دام أكثر من ستِّ سنوات..

بعضُ الخيبات تجعلُنا أقوى

لا تُحاولِ البحث عن حُلمٍ خذلك
حاول أن تجعلَ من الانكسار بدايةَ حُلمٍ جديد.

احلم كما تشاء، بما تشاء، وكيفما تشاء.
نم كثيراً حتَّى تكثرَ أحلامُك.
ولكن
إيَّاكَ ثُمَّ إيَّاكَ أن تستيقظَ دون أن تنهيَ ولو جزءاً صغيراً
من حُلمك.
وفور استيقاظكَ أغمض عينيكَ مُجدَّداً لتُجدِّدَ الأحلام.

عاوَدَها ذلك الحُلمُ للمرَّة الثَّالثة على التَّوالي، فاستيقظت في هذه المرَّة فزعةً على غير عادتها، وظلامُ اللَّيل يلفُّ المكان من حولها، وبرودةُ يناير كانت تخترقُ عظامها الرَّقيقة. ارتشفت قليلاً من كأس الماء المتواجد على طاولتها بجانب السَّرير الخشبيّ.

انقضت بضعُ ساعاتٍ وهي جالسةٌ تتأمَّلُ حُلمَها في ذهنها إلى أن لاحظت بزوغ شمس الصَّباح. نهضت من سريرها كي تتأمَّل شروق الشَّمس من خلال تلك النَّافذة الصَّغيرة، واتَّكأت على حافَّتها وراحت تمسحُ تلك الدَّمعة اليتيمة التي انسكبت على خدِّها.

إلى متى سيبقى هذا الحُلمُ يُراوِدُها؟ كُلَّما حاولت أن تنساه عاد ليُطِلَّ عليها بجديدٍ، وكُلَّما حاولت النَّوم هرباً من الواقع الذي فرض نفسَهُ لمحت وقعَ أقدامه في أحلامها. أحياناً كانت تراه شهيَّاً، ولكم تمنَّت أن تبقى معه اللَّيل بأكمله! وأحياناً أُخرَ يجيئُها ككابوسٍ مفزعٍ يَسُدُّ شهيَّتها للنَّوم، ثُمَّ يرحل.

نظرت إلى المُفكِّرة التي فوق الطَّاولة، فاليومُ هو ذكرى طلاقها من زوجها أحمد، وقد استطاعت أن تصمدَ سنةً كاملةً دون أن تنهار، ثُمَّ استلقت على سريرها أملاً في أن تنامَ مُجدَّداً ليتراءى لها فارسُها في حُلمٍ جديد، وأغمضت عينيها لتتراءى لها أحلامُها معه. كان

ذلك بعد انفصالها عن زوجها بشهرٍ واحد، لتنامَ في تلك اللَّيلة الباردة والمُثلجة من ليالي يناير.

شابٌّ أسمرُ ذو ملامحَ خليجيَّة، طويلٌ وجذَّاب، ذو لحيةٍ خفيفةٍ وشاربٍ قصير، شعرُهُ الأسودُ أضفاه جمالاً زائداً على جماله، يرتدي ملابسه الخليجيَّة البيضاء بنقاءٍ وطُهر. أمسكَ حينها بيديها الباردتين على عكس يديه الدَّافئتين، أمسكَهما بحنوّ رجلٍ وشهامته، ونظر إلى عينيها العسليَّتين بشغفٍ ظاهر، وكأنَّ عينيه تُقدِّمان لها عهداً بالبقاء طوال العمر. سرت قشعريرةٌ في جسدها من نظراتِهِ العطوفة المُمتلئة بحُبٍّ جميل. أجلسَها بجانبه، ضمَّها إلى صدره، قبَّلها من جبينها، ولكن لم يتحدَّث معها بتاتاً. في صمتِه غُزلت أجملُ الحكايات وأروعُها، وقلبه هو من كسَرَ أروع لحظات الصَّمت حينما أمسكَ بيدها من جديدٍ وطبع قبلةً رقيقةً على كفِّ يدها، ثُمَّ غادِرَ إلى اللَّاشيء.

أفاقَت من ذاكرة حُلمها بحزنٍ اعتصرَ فؤادها، راحت تتمنَّاهُ وكأنَّهُ ماثلٌ أمامَها، تُريدُهُ هو بالذَّات أن يُكمِلَ معها قصَّةً بدأها بنفسه، فهي لم تذُق طعم الحُبِّ يوماً، وها هي تُريدُهُ أن يُشاركَها البطولة في قصَّة الحُبِّ هذه.

زوجُها أحمدُ الذي تزوَّجت به منذُ ثلاث سنين لم تُحبَّهُ يوماً، وهو أيضاً لم يُحبَّها؛ إذ كانت له زوجةً لا غير، زوجةً تُلبّي احتياجات زوجها كواجبٍ فُرِضَ عليها ليس أكثر. زواجُهما كان بالنِّسبة له مصلحةً تجاريَّةً مقابلَ صفقةٍ ماليَّة، وكانت بالنِّسبة لهُ كأثاث للبيت قد اشتراه، وكان بالنِّسبة لها زوجها الذي اشتراها بثمنٍ بخسٍ، ولأنَّها لم تتحمَّل إهاناتِهِ المُتلاحقة اختارت أن تهربَ منه بعد أن هربَ منها إلى أُخرياتٍ كثيرات، وهي الجارية في منزلها وعليها ألَّا تبرحَه؛ لأنَّها أُنثى، والأُنثى موصومةٌ بالعار، تجلبُ العار إلى أهلها إذا ما قرَّرت أو فكَّرت مجرَّد تفكيرٍ بالطَّلاق.

استطاعت الهرب إلى بيت أختها هبة للعيش معها، وسارعت إلى رفع دعوى التَّفريق، فربحتها بسهولة بعد أن تخلَّت عن مهرها كاملاً ممَّا أغضب والدها الذي كان يُراهنُ على هذا المهر، فهدَّدها إن لم ترجع إلى بيت زوجها بأنَّه سيبيعها لأوَّل خاطبٍ يضع لها سعراً باهظاً.

لقد غدت أسيرةَ شابٍّ مجهول الهُوِيَّة، ظهر من العدم ليروي ظمأَها للحبِّ وليرويَها من الكأس الذي حُرِمت منه سنين عدَّة، وحتَّى لو كان حُلماً لا بأس، فبعضُ الأحلام أروع بكثير من واقعٍ لا يجلبُ لنا سوى الآلام.

أفاقت من شرودها على صوت أُختها هبة وهي تُناديها لتشاركَها وزوجَها مصطفى وجبة الإفطار، فنهضت مُتململةً، وسارت ببطءٍ شديدٍ لتغسلَ وجهها من تجاعيد الأيَّام. جلست بمحاذاة أُختها على المائدة دون أن تنبسَ ببنت شفة، وبدأت الأكل دون شهيَّة، فهي منذُ مُدَّةٍ لم تأكل إلَّا كفاف يومها، ولم يعد يهمُّها ذبولُ جسدها وهي التي كانت كالبرعم المتفتِّح الرَّاقص في وهج الشَّمس.

أنهت طعامها بسرعةٍ، وعادت إلى غرفتها مباشرةً، فهي ترفضُ الجلوس مع زوجُ أُختها الذي في كُلِّ مرَّةٍ يُحضرُ لها عريساً غريباً وعجيباً وكأنَّهُ مُتواطئٌ مع والدها لنحرها من جديد.

هبة وزوجها كانا يعتقدان أنَّ سبب ذبول منى هو انفصالُها عن زوجها أحمد، فهي مازالت في العشرين من عمرها وبحاجةٍ إلى من تأوي إليه في آخر اللَّيل. لم يُدرِكا أنَّ ثمَّة سبباً آخر وشاباً جذَّاباً وقف في منتصف حياتها ليوصدَ قلبها جيَّداً من بعده، وها هي لا تُريدُ من الرِّجال سوى تركها بمفردها تندبُ حُبَّاً لم يُولد أصلاً، حُبَّاً وُلدَ في الأحلام وحسب.

نظرت هبة إلى زوجها مصطفى، وقالت:

- ما خطبُ منى؟ إنَّها في كُلِّ يومٍ تزدادُ سوءاً وكأنَّها في معركةٍ مع الموت!

- أعتقدُ أنَّها مازالت تعاني من حبِّها لأحمدَ، فهو وإن لم يكن كما أرادت يبقى سندها وزوجها، وهما قد عاشا سويَّةً مُدَّة سنتين.
- لا يا عزيزي، أنا أُخالفُكَ الرَّأي، فمنى لم تشعر بأنَّها زوجةٌ لأحمدَ ولو ليومٍ واحدٍ، فجُلُّ وقته يقضيه مع بنات الهوى في اللَّيل وفي عمله صباحاً! أنَّى لها أن تشعرَ بحُبِّ رجلٍ كهذا، رجلٍ لم تنطبق عليه مواصفاتُ الرَّجولة إطلاقاً؟
- إذن ما رأيكِ بتزويجها بالشَّخص المناسب؟ إنَّها تحتاجُ رجلاً تبثُّ إليه همومَها وتبكي في حضنه، رجلاً يُشعرُها بأنَّها ماتزالُ أُنثى.

حينها ضحكت هبة بملء فيها، وتفرَّست في زوجها قائلة:

- قل لي ياعزيزي: من هو الرَّجل الذي به تلك المواصفات الدَّقيقة وسيبحث عن إمرأةٍ مُطلَّقة؟! ألا تعلم أنَّ الرِّجال في عصرنا يبحثون عن الفتيات الصَّغيرات؟! إن كان كما قلت فسيكون إمَّا رجلاً قد خاض تجربة الزَّواج وفشل وهو الآن قد تجاوز الأربعين، أو أنَّه متزوِّجٌ ويبحث عن المتعة الجسديَّة بعيداً عن زوجته، وحينما تعلم زوجته سيتخلَّى عن الثَّانية خوفاً من خسران الأولى وحفاظاً على بيته وأطفاله.
- أُوافقُكِ الرَّأي، ولكن ثمَّة من يُريدُها. قد طلبها من والدها، وهو راضٍ بقصَّة طلاقها، فإن هي لم ترضَ بهذا وقرَّرت أن تخرجَ من أسرها

الذي أسرتْ به نفسها ستجد من يُحبُّها ويُريدُها لذاتها هي. رُبَّما لم يُكتَب لها الحبُّ في زواجها الأوَّل، وإنَّما قُدِّرَ لها الحبُّ في زواجٍ آخرَ. أنا واثقٌ يا حبيبتي بأنَّ اليوم الذي ستُخبرُكِ فيه بأنَّها عاشقةٌ قريبٌ، وحينها ستُصدِّقين كلامي.

ضحكت هبة من أعماقها، ثُمَّ قالت بصوتٍ هادئ:

- وكم أتمنَّى رؤية ذلك اليوم! مُنى قد تعبت في حياتها مع والدي، وزوجُها أشقاها كثيراً. توقَّعت فشل هذا الزَّواج قبل بدئه؛ لأنَّ ما بُني على باطلٍ يظلُّ باطلاً.

ضحك زوجُها، ثُمَّ ما لبث أن غادر إلى عمله مُسرعاً، فالحديثُ قد أنساه موعد عمله.

****

شغَّلت منى جهاز الحاسب الخاصّ بها، وحين تأمَّلت حسابَها في فيس بوك عادت إليه بأفكارها دون قصدٍ منها، وتذكَّرت حُلمها الثَّاني معه.

في ليلةٍ من ليالي شهر إبريل الرَّبيعيّ عاد إليها بوجهٍ بشوشٍ كالقمر وكأنَّهُ عائدٌ من فرحٍ ما، قال لها بحنانٍ لا مثيلَ له: مضت على فراقنا ثلاثُ سنوات. ضمَّها إليه، وحملها حتَّى طارت في سماء

أحلامه وارتفعت قدماها عن الأرض، ثُمَّ قبَّلها من جبينها، وأعادها إلى الأرض مرَّةً أُخرى.

لم تدرِ يومَها سرَّ السَّنوات الثَّلاث، هل عاد إليها بعد ثلاث سنواتٍ أم أنَّ ليلتها امتدَّت لثلاث سنوات؟

في هذه المرَّة لم يكن صامتاً كعادته، لقد نطق وأسمعها صوته الدَّافئ. إنَّها تستطيعُ تمييز صوته عن بقيَّة الأصوات. كيف لا؟! هو حبيبُها. قد أفاقت من شرودها، وبدأت الكتابة على حائطها الفيسبوكيّ:

"أين أنتَ يا نبضي؟

من أين ظهرت؟

وكيف ظهرت؟

ولمَ ظهرت؟

هل أنتَ ملاك؟

هل أنتَ من الجنّ؟

هل أنتَ بشر؟

بالله عليكَ أخبرني: من أنت؟

ولمَ اخترتَ أحلامي للعبث بها؟

هل تراني في أحلامكَ كما أراك؟

وهل أحببتَني كما أحببتُك؟

أخبرني يا فارسي: من تكون؟

إنّي في كُلِّ ليلةٍ أتعطَّرُ وأرتدي أجمل الثِّياب والحُلِيّ لأجلكَ وحدك. تعالَ إليَّ وستجدُ فيَّ فندقاً لقلبك".

ثُمَّ ضغطت على زرِّ النَّشر لتراها تُزيّنُ صفحتها.

حين دخلت عليها أُختُها بكأسٍ من العصير كانت قد انتهت للتوّ من تصفُّح حسابها، فقالت لها هبة بهدوءٍ مُصطنَع:

- **لنتحدَّث قليلاً.**
- **أنا علمٍ بما ستُخبرينَني به، فقد حفظتُ أحاديثكِ عن ظهر قلب! هل تريدين أن أُعيدَها على مسمعك؟**
- **لأنَّكِ لا تنصتين إلى أحدٍ أبداً. إلى متى ستبقين أسيرة غرفتِك؟ إلى متى ستبقين بهذه الحال؟ ألم تلاحظي تلك الهالاتِ السَّوداء التي اجتاحت عينيك؟ ذبولَ وجهكِ ونحولَ جسدك؟ انظري إلى وجهكِ بالمرآة لتري كيف أصبح!**
- **وماذا أفعل؟ هل أرقصُ رغم جراحي طرباً كي تبتسموا وتفرحوا؟! كيف لي أن أضحكَ وقلبي قد ذُبح من الألم؟! هل تدرين عدد الطَّعنات التي غُرزت في قلبي وأدمته؟ وهل لكِ أن تُدركي حجم الألم الذي يعتصرُني حين أتذكَّرُ ذلك اليوم الذي شهد زفافي إلى ذلك**

الرَّجل المغرور؟ إنَّهُ لم يكن زفافاً، هي في الحقيقة جنازة! بدا الأمر وكأنِّي رأيتُ قبراً يُحفرُ لي حين كُنتم تزفُّون نعشي إليه، وبينما كُنتم كالسَّكارى تتراقصون على إيقاع الأغاني الشرقية وكُلُّ امرأةٍ كانت ترقص على إيقاع جرحي كان قلبي ينزفُ ألماً. حينها فقط أحسستُ باليُتم والوحدة، لم يكن معي من يُشاطرُني عزائي.

- والآن حان دورُ سعادتكِ، هيَّا حرّري نفسَكِ من هذا الأسر، لا تبقي أسيرةَ هذه الغرفة، أسعدي نفسَكِ بأيِّ شيءٍ، اخرجي واستمتعي بالصَّباح ونسماتِهِ العليلة وشمسِهِ الدَّافئة، اقطفي الورودَ وقدِّمي لنفسِكِ أجملَها كهديَّةٍ، ولا تنتظري من أحد أن يُهديَها لك.
- وهل سأجدُهُ إن خرجت؟ هل سأجدُ حُبِّي المفقود؟ أعتقدُ أنِّي سأنالُ خيبةً أُخرى تُعيدُني إلى سجني من جديد، وحينها سأُكبِّلُ نفسي بالأصفاد لأمنعَ قلبي من خيباتٍ أُخرَ مُتلاحِقة.

لم تفهم هبة حديث منى، وجُلُّ ظنِّها أنَّ منى تبحثُ عن حُبٍّ جديدٍ يُعيدُ إليها بريقَ عينيها.

- ستجدينَهُ، صدِّقيني، شرط أن تخرجي من هذا الأسر الذي أوقعتِ نفسَكِ به، وستعثرين عن ذلك الحُبِّ. مازلتِ صغيرة، والأيَّامُ ستُثبتُ لكِ صحَّة كلامي. الرَّبيعُ بانتظاركِ، وهو لا يُهدينا إلَّا الفرح، فافرحي في حياتِكِ القادمة تسعدي.

احتضنت هبة أُختَها بكُلِّ حُبٍّ وقبَّلتها من جبينها، ثُمَّ غادرت تاركةً منى في حيرةٍ من أمرها.

****

وقفت منى أمام مرآتها الكبيرة الشَّاهدة على جراحها، تأمَّلت هالاتِها السَّوداء كسوادِ اللَّيل تحت جفنيها، وجهها الشَّاحب، جسدها الذي يزداد نحولاً يوماً بعد يوم، شعرها الذي تخلَّلته بضعُ شعراتٍ بيضاءَ وهي مازالت في العشرين من عمرها. أغمضت عينيها بتلقائيَّة، فتذكَّرت اللَّيلة التي جمعتهما سويَّةً تحت أغصان شجرة الزَّيزفون حيثُ كان لقاؤُهما الثَّالث.

أتاها وفي عينيه الشَّوق يتحدَّث، أهداها وردةً جوريَّةً صفراءَ من نور الشَّمس قد خُلقت، وقال لها والدَّمعة في عينيه قد اختصرت المشهد:

- أليست خمسُ سنواتٍ كافية؟ أما آن أوان اللِّقاء؟

قبَّلها من جبينِها كعادتِهِ، ثُمَّ غاب كما جاء.

أفاقت على دمعةٍ انسكبت من جحيم الذِّكريات، لا هو لها فيجيئها ولا هي له فترحل إليه، لا هو بقريب ولا هو ببعيد. ها هي تشتاقُهُ حدَّ الوجع، بل أكثر!

جلست القرفصاءَ، وأحاطت رأسَها بيديها، ثُمَّ راحت تنتحب وتشهق حتَّى أرهقَها البكاء. إنَّها لا تعرف سبيلاً لوصاله، ولا تدري إلى متى سيظلُّ يُطارِدُها في أحلامه، فهو يأتي حين يرغبُ، ويرحلُ متى ما شاء.

أين ستبحثُ عنه؟ هي لا تعرفُ من أين تبدأ، فدمشقُ مدينةٌ كبيرةٌ، ثُمَّ إنَّها قد استنتجت من زِيِّه أنَّه من بلاد الخليج جاء، وفي أحلامها حطَّ رحاله ليُمارسَ الحُبَّ معها هي دون سواها، فهي وحدَها من يرغبُ بالعبث بأحلامها.

أسئلةٌ كثيرةٌ رقصت في رأسها دون أن تعثرَ على أجوبةٍ عنها.

مضى يومُها كعادته، كان روتينيَّاً مملَّاً في كلِّ شيءٍ، وأفكارُها لا تبرحُ رأسَها مُصمِّمةً على النَّيل منها، مُشوِّهةً إدراكَها، وتلك الأحلامُ قد طغت على حياتها حتَّى كبَّلت ذهنَها وجعلتها رهينةً لفارسٍ لم تلقهُ سوى ثلاث مرَّاتٍ على مدار سنةٍ كاملة.

وكانت تأوي إلى سريرها، تتعطَّرُ له وتتزيَّنُ، فلربَّما جاء إليها دون موعدٍ مُسبقٍ. وحدَهُ بطلُ أحلامِها من يحقُّ لها أن تتزيَّن له، وأبطالُ الأحلام وحدَهم من يستحقُّون منَّا الاعتناءَ بأنفسِنا من أجلِهم أكثر بكثيرٍ من أبطال الواقع.

وبعد ليلٍ طويلٍ لم يزرها طيفُهُ فيه استيقظت بملامحَ تشي بالكآبة، ماذا تراها تفعلُ وقد باتت تشتاقُ إليه كثيراً؟

نهضت من سريرها بتململٍ ووقفَت أمام مرآتِها كي تُسرّحَ شعرَها المُنسدِلَ على كتفيها من غيرِ رتابة. ابتسمت ابتسامةً منكسِرةً وارتدت فستانَها الورديَّ مُصمِّمةً على أن تبدأ حياةً جديدةً وقصَّة حُبٍّ جديدةً بطلُها فارسُ أحلامِها المُنتظَر.

قرَّرت أن تخرجَ لتُواجِهَ العالمَ من جديد، فكَّرت بالبحث عن عملٍ لها، فلرُبَّما وجدته في زحمة الأيَّام. لا بُدَّ أنَّ القدر سيقفُ في صفِّها في هذه المرَّة وسيَهديها إليه، مُقتنِعةً بأنَّها يجب أن تبدأَ هذه الحياة بطريقةٍ جديدةٍ قد تكونُ صعبةً شيئاً ما، ولكن في النِّهاية ستصل إلى درب الحُبّ الذي ابتدأ خيطُهُ في حُلمٍ عابر.

تناولت الأُختان وجبة الإفطار معاً، فلاحظت هبة التَّغيير الذي طرأ على منى ظنَّاً منها أنَّ حديثَها معها قبل بضعِ ساعاتٍ جاءَ بنتائجَ إيجابيَّة، لم تكن تعتقد أنَّ هناك خلف الكواليس من يُحرّكُ منى كدمية باربي.

كسرت الصَّمت حين قالت لها:

- أين تذهبين مُبكراً هكذا؟
- سأبحثُ عن عملٍ، قد قرَّرتُ البدء من جديد.

- وفي أيّ المجالات ترغبين بالعمل؟
- في مطعمٍ أو فندق، لعلّي ألتقي به.
- من تقصدين؟

قصَّت منى على هبة أحلامَها الثَّلاث، فضحِكت هبة من سذاجة منى، ثُمَّ قالت:

- هي أضغاثُ أحلامٍ، فلا تأخذيها على محمل الجدّ.
- ولكن الحلمُ قد تكرَّر أكثرَ من مرَّة! رُبَّما يغدو واقعاً غداً.
- رُبَّما! حاجتُكِ للحُبِّ هي التي رسمت في ذهنِكِ هذه الأحلام، وهذا الشَّابُ رُبَّما رأيتِهِ ذات يومٍ ولو لجزءٍ من ثانية، فحفظُهُ ذهنُكِ في ذاكرتِك، وأعادَهُ إليكِ في هيئة أحلام.
- وما أدراكِ أنتِ؟ رُبَّما هو يراني أيضاً الآن في أحلامه.

رحلت منى بعد أن قبَّلت أُختَها من جبينِها قبل أن تُكمِلَ حديثَها؛ لأنَّها تعرفُ أُختَها تمام المعرفة، فهي كأبويها واقعيَّةٌ جدَّاً ولا تثقُ بالأحلام.

سارت بين الحقول قليلاً قبل أن تركبَ الحافلة البيضاء التي دائماً ما كانت تقفُ في المكان ذاتِهِ بانتظار أن تمتلِئَ بالرُّكَّاب، جلست بجوارِ النَّافذة، ووضعت سمَّاعات الهاتف في أُذنيها وراحت تستمعُ

إلى الأغاني الهادئة بينما رأسُها يستندُ إلى النَّافذة وهي تُشاهِدُ الطَّريق وخيالُها يسرحُ معه كيفما شاء.

وحين وصلت الحافلةُ إلى دمشق نزلت منها لتبدأَ رحلة البحث عن عملٍ لها، فارتادت أوَّل مطعمٍ شاهدته أمامَها، دخلته في دقائقَ وخرجت منه بعد أن أخبرها مُوظَّفُ الاستعلامات أنَّ لديهم من المُوظَّفين من يكفي لسدِّ احتياجات المطعم. لم تحزن، فهذه كانت البداية وحسب، ثُمَّ دخلت مطعماً ثانياً وثالثاً ورابعاً وخامساً، بل وأكثر، إلَّا أنَّ الإجابات كُلَّها كانت بالرَّفض، وحين تعِبت قدماها من السَّير وشعرت بإرهاقٍ شديدٍ حتَّى لم تعُدْ تقوى على متابعة المسير عادت إلى منزلها تجرُّ أذيال الخيبة وراءها.

وبالرَّغم ممَّا حصل لم يخب ظنُّها، فقد قرَّرت أن تعودَ في اليوم التَّالي لتبحث مُجدَّداً عن فرصٍ أُخرى، فهي لن تيأس أبداً.

دلفت إلى البيت وروت لأُختِها ما جرى لها، ثُمَّ دخلت غرفتَها قبل أن تستمع إلى فلسفة هبة التي باتت تكرهُها، رُبَّما لأنَّها كانت تُدرِكُ أنَّ هبة مُحقَّة، وبما أنَّها رفضت قبول الواقع فكيف لها أن ترفضَ نبضات قلبها!

استرخت على سريرها تُفكِّرُ وتسرحُ في ذهنها بعيداً، كم باتت تُرهِقُ نفسَها بالتَّفكير! عقلُها أضحى يعملُ ليلاً ونهاراً دون كللٍ أو ملٍ؛

إذ كان فارسها يتسلَّلُ إلى أحلامها ليُوقِظَها ويتركَها في حزنٍ وشوق حتَّى غطَّت في نومٍ عميقٍ تاركةً الحياة تعبثُ بها كيفما تشاءُ سواءٌ في أحلامها أو واقعها.

عاد إليها في هذه المرَّة بوجهٍ مُبتسم، عاد ليضمَّها إلى صدره بحنان عاشق، وها هي قد ارتدت له فستان الزَّفاف الأبيض، فراح يُراقِصُها على أنغام أُغنيةٍ لماجدة الرُّوميّ، مطلعها:

"يُسمعُني حين يُراقصُني

كلماتٍ ليست كالكلمات".

فما لبث قلبُها من فرط السَّعادة أن حطَّ فوق الغيوم. كيف لا وهو قد أَمسكَ بيديها الصَّغيرتين! وبقبلةٍ صادقةٍ طبعَها على خدِّها احمرَّت وجنتاها خجلاً، ثُمَّ همس في أُذنها:

"أَميرتي أنتِ".

حملها ودار بها دورتين كاملتين، كانت في أحضانه كعصفورةٍ بيضاءَ، ثُمَّ وضعها على الأرض بخفَّةٍ وحنانٍ، وحينها أحاطت وجهَهُ بكفِّيها واستنجدته ألَّا يرحل، لكنَّهُ سبقَها حين قبَّلها قبلة الوداع، ثُمَّ غاب في اللَّاشيء. لقد تركها بفستانها الأبيض كالثَّلج ودمعةٌ يتيمةٌ تعتصرُ خدَّها ألماً.

أفاقت بعد ساعاتٍ لتجدَ الدَّمعة مازالت مُستقرَّةً في مكانها، فمسحتها بغضب. كانت دمعةً لئيمةً عنيدةً ترفض النُّزول.

هدأت قليلاً قبل أن تهبَّ لتفتح دفتر الرَّسم وتشرع برسمه. نعم، استطاعت أن تحفظَ وجهَهُ جيّداً في هذه المرَّة، فبعد أربع محاولاتٍ فاشلةٍ وجدت نفسَها تقتربُ منه أكثر فأكثر، ففي كُلِّ حُلمٍ يظهرُ لها شيءٌ جديدٌ ممَّا يجعلُها تتعلَّقُ به أكثرَ. لقد نجحت في إنهاء اللَّوحة ووضعتها قرب سريرها على الجدار المقابل لها كي تراه في كُلِّ ليلةٍ قبل أن تنام.

لم تجد للنَّوم سبيلاً، كان قد جافاها، ورحل إلى عوالمَ مجهولة، وكيف لا يجافيها وهي كُلَّما حاولت الهروب منه أتاها بعاطفةٍ وحُبٍّ جديدين؟! بقيت في هذه الحال إلى أن استمعت إلى أذان الفجر من ذلك المسجد البعيد الذي لا يصلُ صوتُهُ إليها إلَّا في موعد صلاة الفجر، توضَّأت وصلَّت وسجدت لله، ثُمَّ دعت من أعماقها أن يجمعَهما القدرُ ولا يُفرّقَهما، وأخيراً نامت على سجَّادتها من فرط ما بكت وابتهلت إلى الله.

وحين أفاقت في الصَّباح وقفت مُجدَّداً أمام مرآتها بابتسامةٍ صغيرةٍ واثقةً بأنَّ القدرَ سيُحقِّقُ لها مُرادَها.

في كُلِّ يومٍ كانت تبدأ رحلتها بالبحث عن عملٍ، لم يعد يهمُّها المكان، جُلُّ همِّها كان شيئاً يُنسيها ذاك الفارس الذي اقتحم عالمَها بلا استئذان. وفي المساء تعودُ إلى سجنها الصَّغير الذي بنت سوره بنفسِها، وتنامُ مُحتضِنةً جزءاً من ذاكرةٍ مفقودةٍ وقليلاً من الخيبات، مُتأمِّلةً صورتَهُ المُعلَّقة على الجدار. لقد احتارت باسمه، وتساءلت إن كان عليها أن تختارَ له اسماً أو تبقيَه هكذا فارساً مجهولاً، وظلَّت تُفكِّرُ بموعد زيارته القادمة!

مضت الشُّهورُ ببطءٍ شديد، ورحلت تلك الشُّهورُ إلى المجهول، وجاء شهر مارس بربيعه المُتواضع ليُشعلَ في فؤادها من جديدٍ نيرانَ ذكرياتٍ محفورةٍ في ذاكرتها.

لم تملَّ يوماً من البحث عن عملٍ لها، حتَّى استوقفَها مرَّةً مصطفى زوج هبة ليسألَها عن أحوالها، فكانت إجاباتُها كُلُّها سلبيَّة. ابتسم ثُمَّ أعطاها رقم صديقه الذي يملكُ فندقاً صغيراً في ضواحي دمشقَ، وأخبرَها أن تتَّصلَ به حالاً، فهو كان قد حدَّثهُ بشأنها من قبل. ابتسمت منى طويلاً واتَّسعت حدقتا عينيها بفرحٍ بالغٍ، فأخيراً جاء الفرجُ لتباشرَ بتحقيق أوَّل حُلمٍ لها، ومن ثَمَّ ستبحثُ عن ضالَّتِها، ستبحثُ عن ذلك الطَّيف الخجول.

****

دلفت إلى بهو الفندق وهي تتلفَّت من حولها، رُبَّما كانت خائفةً أو مُتوتِّرة، لكنَّها حاولت الحفاظ على هدوئها بما استطاعت من قوَّة. استقبلَها أحد المُوظَّفين بابتسامةٍ عريضةٍ كانت كافيةً لتشجيعَها على المضيّ قُدماً. أخبرتهُ بموعدها مع مدير الفندق، ورحَّب بدوره بها، ثُمَّ أدخلها إلى مكتب المدير مع بضع عباراتٍ تشجيعيَّة.

استقبلها المديرُ استقبالاً حافلاً كُرمى لمصطفى، فهو من أعزِّ أصدقائه، وشرح لها طبيعة عملها والسَّاعات المُتوجِّب عليها قضاؤُها في مكان العمل. كانت تُوافقُهُ الرَّأي في كُلِّ شيءٍ بإيماءةٍ من رأسِها، وفي نهاية المقابلة طلب من المُوظَّف نفسِهِ الذي استقبلها بدايةً أن يتولَّى مُهمَّة تدريبها على عملها الجديد.
كانت وجوهُ المُوظَّفين تُبشِّرُ بكُلِّ خيرٍ ممَّا جعلها أكثرَ ثقةً بنفسِها وأكثرَ سعادة.

انتهى دوامُها بعد ساعاتٍ من العمل، وحينها قرَّرت أن تبدأ في اليوم التَّالي رحلة البحث عن فارسها، أو رُبَّما كان عليها أن تنتظرَه لعلَّه يأتي إليها في هذا الفندق الفخم، فهذا الفندقُ يستقبلُ

زوَّاراً كثـراً مـن مختلـف الجنسـيَّات العربيَّـة والعالميَّـة، وقلَّـةٌ مـن السُّوريّين يرتادونه لبعده عن دمشقَ ولأسعاره الباهظة.

أمَّا أحمدُ فقد حجز فيه غرفةً دائمةً، حيثُ كان يُحضِرُ معه في كُلِّ ليلةٍ حسناءَ جميلة. رُبَّما كان هذا هو السَّبب الذي دفع بمصطفى لإحضارها إلى هذا الفندق بالذَّات أملاً بأن يتَّفِقَا مُجدَّداً، فتنتهي بذلك مُشكلتُها على خير. لقد كانت هذه فكرتَهُ وزوجتِهِ وفكرةَ والدِها وفكرةَ أحمدَ نفسِه، وكأنَّهم اجتمعوا ثانيةً لذبحها مرَّةً أُخرى.

جلست مع هبة تُحدِّثُها بتفاصيلِ يومِها دون أن تنسى شيئاً، فها هي أُمنيتُها في إيجاد عملٍ قد تحقَّقت. إلى متى ستبقى تنتظرُ عودة طيفِها إليها؟ في حُلمٍ جديد! هي تُريدُهُ واقعاً ملموساً تلمسُه، تتحسَّسُه، تَشُمُّ عطرَه، تَضُمُّه، ثُمَّ تبكي في حضنه. هل هذا كثير عليها؟ أم لعلَّها أُمنيةٌ صعبةُ المنال؟

كانت تشعرُ بسعادةٍ لم تدرِ مصدرَها حين دخلت غرفتها؛ رُبَّما لأنَّها عادت إلى سجنها الذي اشتاقته حقَّاً، أو رُبَّما لأنَّها أحسَّت عقب عثورها على عمل أنَّ هناك لقاءً بات قريباً.

احتضنت صورتَهُ، قبَّلتها، تأمَّلت وجهه الأسمر، وكأنَّ الصُّورة تنطقُ وتتحدَّثُ عن صمته. مضى على آخر لقاءٍ جمعها به قرابة

شـهرين، وهـا هـو الشَّـوقُ قـد عـاد يأكـلُ أجـزاءً منـهـا، وهنـا شـرعت تتحدَّثُ مع صورته:

"لمَ رحلتَ وقرَّرتَ الغياب دون سببٍ واضح؟

لمَ قرَّرتَ إنهاءَ كُلِّ شيءٍ فجأةً دون أيِّ مُبرِّر؟

ألا تسمع نبضاتِ قلبي المشتاق؟

ألا تُدرِكُ حجمَ الحنين الذي خبَّأتُه لكَ، لكَ وحدَك؟

عُدْ إليَّ لأراكَ ولو لثانيةٍ أو لجزءٍ من الثَّانية، وبعدها ارحلْ حينما تشاء، ولكن لا تُطِل الغياب".

ثَنَتْ ركبتيها كعادتِها لتبدأَ بنحيبٍ مُتواصلٍ طال لساعةٍ أو أكثر، وهمست لنفسِها:

"ومن أنا ليشتاقَني أو يُغرمَ بي؟! هو ليس إلَّا طيفاً جاء من مكانٍ مجهولٍ ليعودَ إليه، لكنَّهُ كان جميلاً ودافئاً".

الـدِّفـءُ يشـعُّ مـن نظراتِـه، والابتسـامة، آه، مـا أروعَهـا! مـا أروعَها حين تظهرُ على وجهه! أَفَهَل ذنبُها أنَّها أحبَّته دون أن تدري؟ لقد أغلقت كُلَّ حصون قلبها حتَّى لا يقتحمها أحدٌ، فنجحَ هو في دكِّ تلك الحصون.

لقد بحثت عنه في الدُّروب كامرأةٍ أضاعت فِلذةَ كبدها وتمنَّت أن تُصادِفَه، بحثت من خلال مواقع التَّواصل الاجتماعيّ، ولكن هيهات أن تجدَه وهي لا تعرفُ اسمَه الذي هو أبسط تفصيل.

كيف سيكونُ اللِّقاءُ إن وجدته؟ هل ستضعفُ أمامَه؟ هل ستبكي؟ رُبَّما ستبتسمُ له ببلاهةٍ ثُمَّ ستمضي، فعيناها لن تُصدِّقَ حقيقة وجوده. أمَّا هو فقد يركض بدوره ليُعانِقَها، وهي في المقابل لن تُمانعَ معانقته؛ لأنَّه الحبيبُ المُنتظر، وهو الحبيبُ العابر.

مسحت دمعتَها المُتمرِّدةَ كعادتِها؛ إذ باتت تكرهُها لكثرةِ انسكابِها في الآونة الأخيرة، ثُمَّ وقفت أمام مرآتها لترى تجاعيد الزَّمن على وجهها الشَّاحب، ومع أنَّها كانت تُدرِكُ أنَّه مُجرَّد حُلمٍ لكنَّها كانت تُدرِكُ أيضاً أنَّه مع الأيَّام سيغدو واقعاً، وأنَّها ستجدُهُ حتماً؛ إذ ليس لها من حبيبٍ سواه، وهو فارسُها شاءت الأيَّامُ أم أبت، وسيبقى فارسَها.

تفاقمت حالةُ الاكتئاب لديها حين تذكَّرت اتِّصالات والدتِها المُتكرِّرة لتعرضَ عليها عريساً جديداً أو كما يُسمُّونه (عريس لقطة)، فعائلتُها لا تُفكِّرُ إلَّا في زواجٍ ثانٍ يُعيدُ للعائلة طهارتها، وكُلَّما محت هذه الفكرة من ذاكرتِها عاودت والدتُها الاتِّصال بها لتمدحَ عريساً جديداً دخل القائمة ممَّن دفع سعراً أعلى، وكأنَّ

تزويجها مرَّةً أُخرى سيجلبُ لها السَّعادة! هم الذين سيسعدون ويرقصون على جراحاتِها، سينعونها مرَّةً ثانيةً وسيُشاركون في تشييع جُثمانها، وهي ستكون معهم وستُشارِكُ في تشييع ذاتِها، ستدفِنُ نفسَها بأمرٍ منهم، وهم سينهالون عليها بالتُّراب كي لا تعود إليهم مُجدَّداً.

صدِّقوني لن يكترثُوا لحياتها الجديدة، إنَّما سعوا لغسل العار من طلاقها الأوَّل الذي شكَّل صدمةً لكُلِّ عائلتها، فنظامُ العائلة لا يقبلُ ببقاء نساءٍ مُطلَّقاتٍ يجلبن لذويهم العار. فهل الطَّلاقُ عار؟!

وماذا لو عرفوا بشأن ذلك الحُبِّ الثَّاني المُتواجد في المحطَّة التَّالية من حياتها؟ إنَّهُ خائفٌ من ردود الفعل حين يظهرُ للعيان، سيبقى متوارياً في الظَّلام خلفَ الكواليس إلى أن تأذنَ له رحمةُ الله بالظُّهور لها قبل غيرها.

وكالعادة تُغلِقُ أُمُّها سمَّاعة الهاتف المُتربِّع على الطَّاولة الخشبيَّة في وجه منى، وهي تُردِّدُ: "حسبي الله ونعمَ الوكيل"، وكأنَّ الوكيل هو من أمرهم بدفن ابنتهم مرَّةً أُخرى.

إلى متى سيستمرُّ هذا الحالُ بينها وبين أهلها؟

إلى متى سيظلُّ أهلُها منبعَ عزائها وتعاستها؟

كيف ستُخبِرُ أهلها عن ذاك الحُبِّ الذي اجتاح كيانها، فرُبَّما توقَّفوا عن إرسال العرسان إليها، ولكن كيف؟ هم لا يؤمنون بحُبٍّ حيّ، فكيف يؤمنون بحُبٍّ وُلِدَ في أحلامٍ عابرة؟! وبالمشاعر أيضاً لا يؤمنون، بل يعتبرونها أشياءً سطحيَّةً وسخيفة، والحُبُّ في نظرهم يأتي بعد الزَّواج، وكُلُّ شيءٍ قبله مُجرَّدُ تُرَّهات.

إنَّ والدتها قد تزوَّجت من والدها؛ لأنَّ نساءَ عصرها يفعلن ذلك، لم تكن تدرِ إن كانت قد أحبَّت والدها أم لا، لكنَّها كانت تحترمُهُ لكونه زوجها واحترامُها لهُ واجب، وهكذا بنت علاقتها معه وأنجبت بناتِها على أساس الاحترام وليس الحُبِّ، وأنَّ عليها أن تكون جاريته ليس إلَّا، فآمنت بأنَّ على المرأة ألَّا تتبع قلبها ومشاعرها، المُهمُّ في النِّهاية من تتزَّوج، وحتَّى لو لم تُحبَّه فيكفي أنَّهُ زوجُها كي تحترمَه وتكونَ كالخاتم في إصبعه.

عادت إلى قبرها الأوَّل الذي دفنت فيه، وهي لم تكن تُطيقُ أحمدَ بتاتاً، وإنَّما وافقت على زواجها منه مُرغمَة، فصارت حياتُها جحيماً لا يُطاق؛ لأنَّها رفضت أن تكونَ له جارية، ورفضت أن تُسايرَ زمانَ عصرها؛ لأنَّها ليست آلةً. هي أُنثى، ولها كيانُها واحترامُها.

إذن كيف سيعترفُ أهل منى بحُبِّها لذلك الطَّيف وهم يرفضون فكرة حُبِّها إنساناً جاء من صميم الواقع؟! إنَّه من قلب الأحلام، وتلك الأحلامُ كانت غريبةً أشبه بلياليِ ألف ليلةٍ وليلة.

ولكن، يبقى السُّؤال الأهمُّ الذي ظلَّ يُراودُها دوماً: ما سِرُّ ذاك الجفاء بعد أنَّ تعلَّقت به؟

إنَّ الرِّجال وهم أطيافٌ لا يكفُّون عن عاداتِهم الذُّكوريَّة، فيرحلون فجأةً ودون سابق إنذار.

فجأةً بدأت حياتُها تأخذُ مُنعطفاً جديداً، فكانت في عملها مُختلِفةً عمَّا هي عليه في منزلها، ففي الفندق سعادةٌ وانشغالٌ، وفي البيت وحدةٌ وانتظار.

كانت تمتازُ بالهدوء والصَّمت، جميلةٌ بابتسامتها الصَّغيرة، ممَّا جعل طاقم العمل يُرحِّبُ بها ويسعدُ بها كفردٍ منه.

ولكن لم تكن تدري أنَّها ستُفاجَأُ يوماً وبعد شهرٍ من عملها في ذاك المكان به، بأحمدَ زوجِها السَّابق!

نظر إليها مراراً وكأنَّهُ على علمٍ بتواجدها في الفندق، تأمَّلها وكأنَّه لأوَّل مرَّةٍ يلمحُها، ثُمَّ كسر الصَّمت حين قال لها بصوته الرَّخيم:

- منذُ متى وأنتِ تعملين هنا؟

نظرت إليه بذهول؛ إذ كانت تتمنَّى أن ترى طيفَها لا أن ترى سجَّانَها، وآخر شخصٍ كانت تتوقَّعُ رؤيته هو أحمد! أكملت العمل على الحاسوب بسرعةٍ أكبرَ من المعتاد وكأنَّها تُحاوِلُ أن تطردَهُ من خيالها متناسيةً أنَّهُ يمكثُ أمامَها بنظراتِهِ الحادَّة، لكنَّه قال لها:

- لم يتغيَّرْ فيكِ شيء، بل كُلُّ ما فيكِ قد تغيَّر.

ابتسمت ابتسامةً صفراءَ دون أن تجيبَه ولو بكلمة، حتَّى إنَّها لم تُكلِّف نفسَها عناء النَّظر إليه. لقد تمنَّت ألَّا يطولَ وقوفُهُ أمامَها، تمنَّت أن يختفيَ في لمح البصر، لكنَّه كان عنيداً ومُكابراً.

أضاف:

- إلى متى سيطولُ صمتُك؟
- لا أُريدُ التَّحدُّث إليكَ، أنتَ بالذَّات لا أُريدُ خوض أيِّ حوارٍ معك.
- لكنِّي أُريد، أُريدُ الحديث معكِ لأُبلغكِ بندمٍ وراءكِ قد خُلِق، لأُبلغكِ بمساحاتٍ فارغةٍ قد خلَّفتِها وراءك. أُريدُ أن تصفحي عنِّي، ولنفتح صفحةً بيضاءَ خاليةً من أيِّ شائبة.
- أعتذرُ إليكَ وبشدَّة، لقد طرقتَ القلبَ الخاطئ، فقلبي قد أُغلِقَ وأُقفِلَ بمفتاحٍ. أنا من أقفلتهُ بنفسي، ولن أُعيدَ فتحه لكَ، فأنتَ تُريدُ أن تتملَّكني ليس إلَّا، ولكن لا تُوجدُ أيُّ مساحةٍ للحُبِّ في قلبك.

- لن يكونَ هذا آخرَ لقاءٍ لنا، سنلتقي مُجدَّداً، فلي في هذا الفندق غرفةٌ خاصَّة، ويُسعدُني أن أراكِ دوماً هنا.

تركها وصعد إلى غرفته، تركها في حزنٍ بينما ظلَّت تصبُّ عليه آلاف اللَّعنات في سِرِّها. الآن باتت تمقتُهُ كثيراً! يا لغروره المُتعالي! لم تكن تعرفُ سِرَّ قوَّتها آنذاك، كُلُّ ماعرفته أنَّها يجبُ ألَّا تبكي، وأنَّ عليها مسح الدُّموع قبل ذرفها لا سيَّما حين رأت في عينيه نظرات ندمٍ وحزنٍ شديدين.

لمَ لمْ يرَ جمالها الأخَّاذ حين كانت في بيته بدل أن يُعاملَها كجارية؟! نحن البشر هكذا لا نرى جمال الحبيب إلَّا بعد فراقٍ طويل، وكأنَّ الفراق يُزيّننا فنبدو أجمل مئات المرَّات عمَّا كُنَّا عليه حين كانوا معنا. فقط حين تحينُ لحظات الوداع نتذكَّرُ أنَّ لنا على الضِّفَّة الأُخرى أحباباً رُبَّما سنلتقي بهم يوماً بقصدٍ أو بمحض الصُّدفة.

حين عادت منى إلى البيت جلست تتناول طعامها في المطبخ، كان مؤلَّفاً من الأرزِّ والفاصولياء، وهو طعامُها المُفضَّل، فبدأت تأكل بنهم، وحينها تذكَّرت ما حدث معها اليوم، فكسرت الصَّمت حين قالت:

- رأيتُ اليوم أحمد.
- أين رأيتِه؟ ماذا حصل؟ هل تحدَّث إليكِ؟

- فـي الفنـدق، لديـه غرفـةٌ دائمـةٌ يـأتي إليهـا مـراراً، لكنَّـه لـم يُفاجـأ لوجودي هناك، وكأنَّه على علمٍ بذلك.
- ولكن لمَ لديه غرفةٌ دائمةٌ في الفندق؟
- كي يستطيعَ إحضار من يرغب من النِّساء، فبيتُهُ في حارةٍ شعبيَّةٍ قديمة، وجيرانُه كُثر، وكُلُّهم يعرفونه جيّداً.
- إذن اروي لي ما حصل.
- يُريدُ العودة إليَّ، كما دعاني للعودة إليه.
- تبَّاً لـه! ألـم يعتـذر عـن جرحـه لـكِ وأنـتِ فـي بيتـه طـوال سـنتين متتاليتين؟
- لا، لم يقل شيئاً كهذا، هو لم يستوعب بعدُ أنَّ قرار الفراق اتَّخذتُه أنا لا هو.
- وماذا أيضاً؟
- بـدوتُ فـي نظـره جميلـةً جـدَّاً، وكأنَّهـا المـرَّة الأُولـى التـي يلمـحُ بهـا جمالي!
- لمَ الآن بالذَّات بعد فراقٍ دام سنة؟
- لا أدري! صدِّقيني.
- سيعوِّضُكِ الله بما هو خيرٌ لك. ماذا عن فارس أحلامك؟

ابتسمت منى ابتسامةً صفراءَ، وتنهَّدت بحزن، ثُمَّ قالت:

- آه.. كم أشتاقُ إليه! إنِّي لا أعرفُ سبيل وصاله، فكُلُّ الدُّروب إليه مُغلقة. إنَّما هو الحُبُّ، أليس كذلك؟

وتلألأ العسلُ في عينيها الصَّافيتين، حينها ابتسمت هبة لها بكُلِّ حُبٍّ، ثُمَّ قالت:

- الحُبُّ يكونُ بين طرفين نشأت بينهما علاقةٌ غراميَّة، أمَّا أن يكونَ بين إنسانٍ وشبحٍ في الأحلام فهذا لم يحصل من قبل!
- قد حصل معي، وأنا قرَّرتُ البحث عنه. أُريدُ أن أجدَه، ولن أتخلَّى عن حُلمي ما حييت.
- ستبقين في أوهامِكِ وأحلامِكِ العابرة.

صمتت لبرهة، وغادرت المطبخ بعد أن أنهت ما في صحنها تاركةً هبة في حيرةٍ من أمرها، فهي مُصرَّةٌ على ألَّا تفهمَها، ولن تفهمَ أبداً حُبَّ منى لفارسها.

****

فـي غرفتهـا يختلـفُ الوضـع كُلِّيَّـاً، فمـا إن تطـأُ قـدماها أرضَ الغرفة حتَّى تشعرَ بحنينٍ يُثقِلُ كاهلَها، وتختفي البسمةُ لتحلَّ محلَّها دمعـةُ قهـرٍ. تراهـا تسـتلقي علـى سـريرها وتعبـثُ بخصـلات شـعرها النَّاعم المُنسدلِ على كتفيها كالشَّلال، تُحاوِلُ النَّوم فيُقاومُها وكأنَّـه فـي حـربٍ ضـروسٍ معهـا، تـنهضُ وتسـيرُ فـي غرفتهـا قرابـةَ سـاعةٍ دون أن تتعب قـدماها، تـروح فـي الغرفـة جيئـةً وذهابـاً، وتقـفُ تـارةً أمـام مرآتهـا، تبتسمُ لمنـى الصَّـغيرة، لـذاتها التـي نسـيتها فـي خِضـمِّ بحثها عن فارسها الذي بيدها رسمته.

مـن خـلال تلـك اللَّوحـة كانـت تُـداعِبُ خصـلاتِ شـعره الأسـود، تُقبِّـلُ الصُّـورة وتحتضـنُها، فتسيلُ الدَّمعـةُ علـى خـدِّها وتُحيلُهـا إلـى اصـفرارٍ شـبيهٍ بالصَّـدأ، ثُـمَّ مـا تلبـثُ أن تعـودَ لتحتضـنَ اللَّوحـة مـرَّةً أُخرى وتحتضنَ معها عمراً كاملاً من الخيبات المُتلاحقة، تبكـي سِرَّاً وجِهاراً. إلى متى كان عليها أن تبقى في شوقٍ عارمٍ إليه؟ إلى متـى وجب على فؤادها أن يبقى أسيراً لقلبٍ غريب؟ لقد بكت مراراً وتكراراً، أنَّت، تأوَّهت، انتحبت، حاولت الصُّراخ، ولكن عبثـاً! فما من سامع لنداءاتها.

لقد رسم ذهنُها صوراً لجنازتها إلى منزلٍ آخرَ، حيثُ دفنُها من جديـدٍ وبمباركـةٍ مـن الكُـلّ، لكنَّهـا طـردت مـن ذهنهـا هـذه التَّخـيُّلات

وأغمضت عينيها كي يتمثَّل لها فارسها بشراً سويَّاً، ومع الأسف لم يكن هذا إلَّا خيالاً، فبمجرَّد أن تفتحَ عينيها كانت تُطلُّ صورتُها من المرآة! لقد أرادته واقعاً لا حُلماً عابراً ينتهي حال استيقاظها.

وفي كُلِّ يومٍ كانت تعيدُ الحكاية نفسَها إلى أن يهبطَ اللَّيلُ فتغفو وهي تحتضُ صورتَه أملاً في أن تراه في الأحلام. وفي الصَّباح حين تفتحُ عينيها على واقعٍ لم ترغب به تتراءى كُلُّ أحلامها أمامها، أمَّا هو فلا! حلمت بنصف سكَّان الكرة الأرضيَّة، حلمت بالكوارث جميعِها من زلازلَ وحرائقَ وبراكين وحروبٍ ولكن لم تره. أشخاصٌ كثرٌ يدخلون عالمَ أحلامها خلسةً وكأنَّهم جواسيس يتلصَّصون عليها، من هم؟ وما هدفهم من اقتحامهم عالمها؟

ثُمَّ حاولت النَّوم مُجدَّداً، فلرُبَّما يأتي في اللَّحظة الأخيرة مُعترفاً بحُبِّه لها، ولكن هيهات أن يعودَ.

وبقيت تلك الأفكارُ تراودُها إلى أن رنَّ المُنبِّهُ مُعلناً السَّاعة السَّابعة.

****

جلست في مكتبها حزينةً بعض الشَّيء صامتةً وهادئةً كعادتها، وبعد مرور ساعتين من العمل المُتواصل دون أن ترفعَ

رأسَها أو تطلبَ استراحةً قصيرةً جاءها زميلها في الفندق، مالكٌ الذي أُعجِبَ بهدوئها اللّافت للانتباه.

كان مالكٌ قويَّ البنية ذا عينين بنيَّتين وحاجبين عريضين، وكان شعره أسودَ لامعاً، وذقنه خفيفةٌ ممَّا أعطاه جمالاً فوق جمال.

جلس يتأمَّلُ هدوءَها الأخَّاذ وجدَّها في العمل وسرعتها باستخدام لوحة المفاتيح وكأنَّها في حربٍ معها، ثُمَّ ما لبث أن كسر الصَّمت حين لاحظَ أنَّها لم تهتمَّ لوجوده قربها:

- إلى متى ستبقين تعملين بكُلِّ جهدكِ وطاقتك وبهذه العصبيَّة المُبالغ بها؟

فُوجِئت منى، فبدت وكأنَّها لم تنتبه له، ثُمَّ نظرت إليه ببلاهةٍ وكأنَّ في عينيها سهماً أرادت به اختراق عينيه لتعرفَ سبب اهتمامه بعصبيَّتها، لكنَّها صمتت وأخفضت بصرَها لتُكمِلَ عملها ولكن هذه المرَّة بانفعالٍ أقلّ.

- ما قصَّةُ الحزن المُسيطر عليكِ؟ ولمَ هذا الصَّمت المُطبق؟

وقفت منى لتهمَّ بالمغادرة، فهذا المخلوقُ شرع باقتحام عالمها حقَّاً، وهي التي أغلقته بمئة مفتاحٍ خوفاً من النَّاس، لئلَّا يشاهد أحدٌ الحُبَّ والخوفَ اللَّذين وُلدا في داخلها، إلَّا هذا المُتطفِّلُ الذي حاول معرفة كُلِّ شيءٍ عنها.

أمسك بيدها لتجلس، فسحبتها منه عنوةً، ثُمَّ لاذت بالفرار، واحتمت خلف شجيرات الحديقة، وتركته في تساؤلاتٍ عدَّة، بينما تركها في خوفٍ من تكرار ما حصل، هي التي باتت تكره الرِّجال كُلَّهم باستثناء فارسها المُبجَّل.

وبعد أن هدأت نفسُها عادت إلى مكتبها بعد أن تأكَّدت من أنَّه قد رحل، وظلَّت شاردة الذِّهن تُفكِّرُ في كُلِّ شيءٍ وفي اللَّاشيء في الوقت نفسه.

كان مايزال يسترقُ النَّظر إليها من بعيدٍ، وفي ذهنه آلافُ الأسئلة التي ينتظر جوابها، ينظرُ إليها دون أن تلحظَ ذلك، يراها مُتقوقعةً على نفسِها، حبيسةَ عالمها. حاول الدُّخول لكنَّها منعته بقوَّة، رآها مُتحفِّظةً جدَّاً، ولكن من يمنع مالكاً من المحاولة مُجدَّداً لفهم لغز عالمها؟!

****

مرَّت سنةٌ ونصف سنةٍ على انفصال منى عن أحمدَ، سنةٌ ونصفُ سنةٍ وحياتُها تتخبَّطُ في مستنقعٍ مجهول المعالم، حياتُها أضحت مزيجاً من سعادةٍ وتعاسة، من أملٍ ويأسٍ. مرَّت شهورٌ ولم تره، لم يظهر في أيِّ حُلمٍ من أحلامها، فحاولت أن تنساه مُقنعةً نفسها بأنَّه وإن عاد سيبقى طيفاً يختفي حالما تصحو على واقعها. إلَّا أنَّه جاء ليُفنِّد ادِّعاءاتِها، حدث ذلك في ليلة يناير الباردة، وفي هذه المرَّة رأت شعاعَ الحزن يُطِلُّ من عينيه الصَّغيرتين، فاقتربت منه قليلاً لتواجهَه، وحينها نظر إليها بتمعُّنٍ، ولأوَّل مرَّة همس لها: "اشتقتُك".

وقبَّل يديها قائلاً:

"حين تشتاقين إليَّ اكتبي عنِّي، واكتبي لي.

اكتبي حتَّى تملَّي منِّي.

لا تحبسيني في قلبِكِ كعصفورٍ تهوين غناءَه.

دعيني أعشْ ولو لمرَّةٍ واحدةٍ في صفحات كتبك.

دعيني أتنقَّلُ بين سطورك، وأشتمُّ عطرَ أحبارك.

دعيني أتنفَّس هواءَ أنفاسك.

اكتبي ما تودِّين لأعودَ وأقرأ كتاباتك.

وأقرأ بها نفسي".

ورحل إلى العدم كما جاء من العدم!

سألت منى نفسها: هل هذا الحبيبُ ملاك؟ أم هو من ملوك الجانّ؟ إنها تراه ذا كبرياءٍ حادٍّ لا يليقُ به أن يكونَ مُجرَّد رجلٍ عاديّ.

تململت على فراشها، وفتحت عينيها العسليَّتين، فقد أرادت أن تتذكَّره من جديد، وحاولت أن تُعيدَ المشهد في ذهنها آلاف المرَّات حتَّى تملَّه، إلَّا أنَّها أيقنت أنَّها لن تملَّ منه.

فما كان منها إلَّا أن نهضت من سريرها لتجلسَ وراء طاولتها وتفتح دفتر مذكَّراتها الورديّ. آه.. كم تعشقُ اللَّون الورديَّ! إنَّه لونُها المُفضَّل، وفي ذاك الدَّفتر بدأت تكتبُ له للمرَّة الأولى، فكتبت:

"لمَ كُلُّ هذا الحزن الذي يُطِلُّ من عينيكَ السَّوداوين؟

هل أنتَ في حالة شوقٍ وبكَ حنينٌ فتَّاكٌ يفتكُ بك؟ أم أنتَ مريضٌ ولا تبالي؟

ها أنا أكتب لكَ بعد أشهرٍ عديدةٍ قضيتُها في محاولةٍ منِّي لنسيانك.

أكتبُ عنكَ ولكَ، وسأبقى أكتب، ولن أملَّ منكَ كما تدَّعي، فلرُبَّما نبت الحبرُ من بين أصابعي ليزهرَ فارساً بلا جواد.

حدِّثني عن بريق الحزن الذي يُطِلُّ من عينيكَ البرَّاقتين.

أخبرني بالله عليك: أين كنتَ طيلة هذه المُدَّة؟ وماذا فعلتَ خلالها؟

قل لي: ماذا أكتب؟

أمامي ألفُ دفترٍ من ألف صفحة، فلا هي تنفدُ ولا الكلام ينفد.

إنَّ مثلُكَ يُعشَقُ بلا كتابة، فماذا أكتبُ عنكَ؟

أنتَ الجوادُ الكريم، والفارسُ الأصيل، والحنونُ الدَّافئ.

أيكفيكَ هذا يا فارسي؟ أم تُريدُني أن أسترسلَ أكثر؟

ماذا أكتب؟

وكيف أكتب؟

إنَّكَ في كُلِّ حكايةٍ تُطِلُّ بحُلمٍ جديد، وبشكلٍ جديد، وحُبٍّ جديد.

بمَ أناديك؟

سيدي!

فارسي!

أميري!

حبيبي!

أخبرني أيُّها أحبُّ الأوصاف إليكَ لأُناديَكَ بها؟ أخبرني بالله عليك، وقل لي: لمَ عُدتَ الآن بعد أن تناسيتُك؟ أنا التي بكت غيابكَ في اللَّيلة الواحدة مئات المرَّات، وفي كُلِّ دقيقةٍ تمضي أرى طيفَكَ أمامي وكأنِّي في حُلمٍ جديد.

عُدتَ بعد أن تناسيتُكَ وبدأتُ أعيشُ حياتي كما يجب، عُدتَ بعد أن أيقنتُ أنَّكَ وهمٌ زائلٌ وسرابٌ لبقعة ماءٍ في صحراءَ مُقفِرة.

كُنتَ ملك الجنِّ الذي يُحبُّ العبث بأحلام الآخرين، وعُدتَ بعد أن فتَّشتُ عنكَ كثيراً، وتأمَّلتُ الوجوه كُلَّها، لكنِّي لم ألمحكَ بينها.

يا لكَ من شيطانٍ يلبسُ قُبَّعة التَّخفِّي!

حدِّثني يا فارسي عن اسمكَ وعمرك، عن بلدكَ وهواياتِكَ، عن دراستكَ، وعن كُلِّ شيءٍ تعشقُهُ، وكُلِّ شيءٍ تكرهُه.

هل تهوى الكتابة والرَّسم مثلي؟ أم تعشقُ كرة القدم فحسب؟

ما هو معجونُ الأسنان المُفضَّل لديك؟

من هو كاتبُكَ المُفضَّل؟ وهل تعشقُ الرِّوايات العربيَّة أو العالميَّة؟

ما هو طعامُكَ المُفضَّل؟ وهل تُحبُّ طعام البيت أم تُفضِّلُ الطَّعام الجاهز؟

أيَّ أنواع الورود تهوى؟ لعلَّكَ ترى أنَّ من السُّخف أن يهتمَّ المرءُ بها؟

هل تعشقُ هدوء البحر أم تهوى هيجانه؟

أيُّ الفصول أَحبُّ إليك؟ أهو الرَّبيع رمزُ الأمل؟ رُبَّما كان الصَّيف والملل؟ أو لنقل الخريف واليأس؟ أو لعلَّه شتاءُ الحنين؟

هل هناك امرأةٌ غدرت بكَ حتَّى بِتَّ تبحثُ في أحلامك عن امرأةٍ لا تخون؟

حدِّثني يا فارسي عن كُلِّ ما يخصُّك، تعالَ إلى واقعي لتُخبرَني، فأنا امرأةٌ باتت تمقتُ الأحلام.

لا تكن جباناً!

أخبرني أمام الملأ أنِّي حكايةُ عشقكَ الأبديّ.

أخبرني أنِّي لستُ في أحلامكَ وحسب، وأنَّكَ تراني في واقعٍ سيغدو أجملَ حين تُنشِئه بنفسك.

أرجوكَ أنشئ واقعاً يجمعُنا سويَّةً.

كفاكَ ظهوراً في أحلامي كاللِّصِ المُتخفِّي، وأنا في المقابل سأهِبُكَ عمراً كاملاً من الحُبِّ والسَّعادة.

متى ستأتي في المرَّة القادمة؟ هل الموعدُ قريب؟ أهو بعد يومٍ أو أسبوعٍ أو شهر؟ أرجوكَ، أرجوكَ لا تجعله بعد سنة، فقلبي على فراقكَ بات لا يقوى".

وما إن انتهت منى من كتابة آخر سطر من سطور الوجع حتَّى دفنت رأسَها كما النَّعامة وراحت تنتحب، لكن بصمتٍ وحزن مُميتين.

فالحُبُّ حين يُكتبُ يُصبحُ حُبَّاً أزليَّاً، ويبقى في الفؤاد طوال الحياة. ومنى استطاعت أن تُحيلَه إلى لغةٍ تكتبها لتعيشَ الحُبَّ مرَّتين، مرَّةً في أحلامها، ومرَّةً بين سطور كلماتِها. استطاعت أن تُخرجَ ما في جوفها من عواطفَ مُخبَّأةٍ في زاويةٍ صغيرةٍ في قلبها.
استطاعت أخيراً أن تُخرجَها وتُجسِّدَها على الورق للمرَّة الأُولى، وقد نجحت بذلك حقَّاً، بكُلِّ ألمٍ نجحت.

****

جلست أمام حاسوبها في الفُندق الضَّخم، وشرعت تُدوِّنُ حسابات النُّزلاء حتَّى جاءها وجلس قربها بصمت، بدا وكأنَّه يُحاولُ من جديدٍ سبر أغوارها. في هذه المرَّة انتبهت له، فارتبكت قليلاً وكأنَّه ضيفٌ ثقيلٌ يجثمُ على صدرها. هو لم يكن يدري سِرَّ معاملتها له بهذه الطَّريقة العدائيَّة، لكنَّها كانت مُصمِّمةً على منعه من اقتحام قلبها، فقلبُها لن يكون مُلكاً له. كانت تخشاهُ؛ لأنَّها تخشى وقوعها في الحُبّ، وتخشى على قلبها من الوقوع في هيامه مُرغماً إن ظلَّ يقتحمُ عالمها هكذا. ماذا ستقولُ لفارسها المُبجَّل إن عاد

يوماً ورآها مع غيره؟ إذا ما شاهد يدها في يده، ورآهما يتعانقان ويتبادلان القبل!

لا، هذا لن يحدث أبداً. كيف ستُخبرُهُ حينها أنَّها جلست طويلاً على رصيف الانتظار تنتظر مروره بفارغ الصَّبر؟

نفضت الأفكار من ذهنها سريعاً، ونظرت إلى مالكٍ بكُلِّ برود، فرأت عينيه تُحاولان اجتياز الصَّمت المُطبق، وحين أخفضت بصرَها خوفاً من التقاء العيون الصَّامتة كان أجرأ منها في الحُبِّ. لقد أمسك بيدها، فنزعتها كما في المرَّة السَّابقة، إلَّا أنَّه عاد وأمسك بها مرَّةً أُخرى، ممَّا أزاد نبضاتِ قلبها أضعافاً مُضاعفةً، وقطع الأوكسجين من تلكَ الدَّائرة الصَّغيرة. ابتسم لها ليُشجِّعها لئلَّا تسحب يدها مرَّةً أُخرى، ثُمَّ قال بصوتٍ مُشبعٍ بالحنان:

- لمَ تخافين من اقتراب المسافة بيننا وتتهرَّبين دوماً؟

جلست وأخفضت بصرها إلى الأرض، كم تمنَّت أن يختفيَ سريعاً! فقد كان يُمعِنُ النَّظر في عينيها العسليَّتين دون أن يزيحَ عينيه عنهما، وفجأةً قال:

- عيناكِ نهرٌ من عسلٍ أتمنَّى العوم فيه.
- لم أجلس لتُسمعَني غزلاً كهذا.

ابتسم لها، فأعطته تلك الابتسامةُ جمالاً زائداً. أمَّا هي فتورَّدت وجنتاها خجلاً من غزله الجريء.

- أُريدُكِ لي زوجة، أُريدُ أن أفهمَ نظرات العيون، وأفهمَ سِرَّ الحزن الذي يشعُّ منها، أُريدُ الاستماع لصمتكِ الحزين، فهل هذا عليَّ بكثير؟
- لكنِّي لا أهتمُّ بالحُبِّ حالياً.
- أمَّا أنا فغارقٌ في عسل عينيكِ، هائمٌ في ابتسامتكِ الصَّافية.

سحبت يدها بقوَّةٍ وهربت لتحتميَ خلف تلك الشَّجرة كعادتها، حيثُ كانت تلك الشَّجرةُ ملاذها الوحيد. ثنت ركبتيها وغاصت في أحلام ربَّما كانت تراها حيناً مستحيلةً وحيناً آخر ستتحقَّق، ولكن متى؟

لم يفهم مالكٌ بعدُ أنَّ منى تكره الرِّجال جميعَهم ما عدا فارسها الذي جاءها في أحلامها، ولو أنَّه اقتحم عالمها كما فعل مالكٌ لكرهته كثيراً، وأكثر بكثير.

مسحت وجهها بيديها الصَّغيرتين، وخرجت إلى عالمٍ لم ترغب به يوماً، خرجت إلى عالم أغمضت عينيها مراراً كي لا تراه، لكنَّها مهما حاولت العيش في أحلامها سيعود الواقع ليُطِلَّ عليها بألمٍ جديد.

وما إن دخلت مكتبها حتَّى رأته أمامها من جديد، كان ينظرُ إليها نظرات ندمٍ لفراقها المُبكِّر.

في المرَّة الماضية كانت قويَّة، ولكن في هذه المرَّة رأى الهشاشة تأكلُ قلبها، ورأى الدَّموع تختفي خلف مُقلتيها، كانت شفاهُها حزينةً ووجهُها بائساً. حزن لحالها وكأنَّه قاب قوسين أو أدنى من قلبها، تمنَّى لو تبكي في حضنه لتُشعرَه بأنَّها ستعود إليه ذات يوم. في تلك اللَّحظة بالذَّات ندم على ما فعله بها، ندم على كُلِّ شيءٍ، ندم لأنَّه خذلها مراراً.

وحين التقت العيون تذكَّرت كم مرَّةٍ أبكاها، وكم مرَّةٍ خانها! كم مرَّةٍ صرخت في وجهه بأنَّها تكرهه!

بقيت عيناه تُحدِّقان بدمعتها السَّاكنة، والنَّدمُ قد بلغ أشدَّه لتفريطه بها، ندم لتهوُّره، ندم لأنَّها أفلتت من يده، وربَّما هو لم يكن مُتمسِّكاً بها كما يجب.

مشى قليلاً إليها وبلا مُقدِّمات، ثُمَّ مسح تلك الدَّمعة اللَّئيمة التي ما فتئت أن فضحت حزنها أمام الجميع. انتفضت لترجع إلى الوراء خطوةً أو رُبَّما بضع خطوات، فاعتذر إليها؛ لأنَّه مسَّها دون مراعاةٍ لشعورها، فهو لم يشأ أن تبقى تلك الدَّمعةُ مُتحجِّرةً في مُقلتيها، إلى أن تلألأ الدَّمعُ في عينيها وابتسمت بتهكُّمٍ منه، فهو

الذي كان يتلذَّذُ بإذلالها قد أتاها الآن ليمسحَ عَبرتها. أتراه فعلاً أتى وكُلُّه شوقٌ إليها؟ أم ماذا؟ لم تعد من ممتلكاته، لقد كانت الصَّفقة الوحيدة التي خسرها في حياته.

تجاوزته وكأنَّها لم تره، ثُمَّ عادت إلى حاسوبها، وبدأت العمل دون أن تنظر إليه. إنَّها لم تكن تُريدُ أن تفهمَ أنَّه قد تغيَّر، تغيَّر كثيراً، وهي لم تُدرِك أنَّه اشتاق إليها جدَّاً؛ رُبَّما لأنَّها الأُنثى الوحيدة التي حطَّمت قلبه، والوحيدة التي أسكتت غروره، وكانت الوحيدة التي استطاعت أن تخلعَه من حياتها، وهو الذي أقسم لها مراراً بأن يسقيها من كأس الهجر مئات المرَّات، فسبقته إلى ذلك، ونجحت.

اليوم رآها مختلفةً عمَّا كانت عليه من قبل، نقيَّةً، جذَّابةً، فائقة الجمال، فاللَّونُ الورديُّ أعطاها طابعاً مُميَّزاً وكأنَّما خُلقِت حوريَّةً لترقصَ على دروب آلامه. لم يكن يراها وهي في بيته سوى جاريته وهو سيِّدها، والآن يراها سيَّدةً وهو العبد.

لمَ في الفراق نُصبحُ أجملَ ممَّا كُنَّا عليه؟

لكأنَّ الفراقَ يُزيّنُنا لنغدوَ أجملَ بكثير.

وبكثيرٍ أجمل.

حين عادت إلى البيت وجدت أُمَّها في ضيافة أُختها، فركضت إليها بكُلِّ حبٍّ واحتضنتها، ثُمَّ بكت على صدرها طويلاً، حتَّى إنَّها لم تشأ الابتعاد عن حضن أُمِّها وهي التي افتقدته زمناً طويلاً. لقد تشبَّثت بأُمِّها وكأنَّها تخشى من حياةٍ خلفَ أسوار هذا الحضن، وبكت كما لو لم تبكي من قبلُ وكأنَّها في ضياعٍ تامّ.

ظلَّت هكذا مُتشبِّثةً بأُمِّها كطفلةٍ صغيرةٍ بينما أُمُّها صامتةٌ تُداعبُ خصلات شعرها النَّاعم بحنان، اعتقدت أُمُّها أنَّ بكاءها الشَّديد بسبب طلاقها، ولم تكن تدري أنَّ هناك حبَّاً يلوحُ في الأُفق.

ماذا كان عليها أن تُخبرَ أُمَّها؟ أتخبرُها عن فارسها الطَّيف الذي زارها في أحلامٍ عابرة؟ أم تُخبرُها عن مالكٍ وشغفه في مبادلة حُبِّها له؟ أم عن أحمدَ ونظرات النَّدم قد أدمت مقلتيه؟ أمَّا هذا الأخيرُ فلم تُحدِّثها عنه خوفاً من فتح جدالٍ طويلٍ قد ينتهي بعودتها إليه مرغمة، فما كان لها إلَّا أن لاذت بصمتٍ أليمٍ دون أن تُخبرَها بأيِّ شيء، واكتفت بالنَّوم في ذلك الحضن الدَّافئ خائفةً من استيقاظها المُفاجئ ويكون ملاذُها الوحيدُ قد رحل.

نظرت الأُمُّ إلى هبة قائلةً والخوف على ابنتها يعتريها:

- ما بال منى وكأنَّ جبالاً من الهمِّ تقبعُ فوق رأسها؟
- لا أدري! فمنى لا تتحدَّثُ عمَّا في قلبها، وكُلُّ ما في قلبها أسرار.

- أخشى عليها كثيراً من حياةٍ ستكونُ صعبة، فلو أنَّها ترجع لزوجها أو تتزوَّج من آخر، فيرتاح قلبنا بعض الشَّيء.
- اتركيها وشأنها، فهي ستُقرِّرُ يوماً أن تختارَ رجلها الذي ستعيش معه.
- ولكن مجتمعُنا لا يرحم، ونحن في زمانٍ صعبٍ للغاية، المُطلَّقةُ في أيَّامنا يُخشى عليها من رجال السُّوء، وكُلُّ رجلٍ يراها سهلة المنال، وأنَّ بإمكانها بيع نفسها له بكُلِّ سهولةٍ ويسر، وكُلُّ رجلٍ يُسمعُها أنَّها في حاجةٍ إلى ظِلِّ رجلٍ، أيِّ رجل، رغم أنَّ الأمر بخلاف ذلك، فالرَّجلُ هو من يحتاجُها، وحين تنتهي هذه الحاجةُ يرميها ويُبعدُها عن طريقه حفاظاً على بيته، ويتركُها حينها جسداً بلا روح، ليبدأ بنهش عرضها أمام أصدقائه، ويتفاخر بأنَّها سلَّمته نفسها راضيةً ودعته إلى استباحة جسدها، وهي من ركعت أمامه موافقةً على احتلاله جسدها. أمَّا حين تحتاجُه لأنَّها رأت فيه حنان الحبيب يسدُّ في وجهها جميع السُّبل، فهو لم يرَ منها سوى الجسد، وهنا يبدأ بإذلالها بأنَّها باعته جسدها، ويبدأ بالتَّشدُّق بكلمات الشَّرف.
- اتركي منى للزَّمن، فهو وحدَه كفيلٌ بحلِّ قصَّتها، قد تعودُ لأحمدَ أو تلتقي بشخصٍ آخرَ يتفوَّقُ على أحمدَ حُبَّاً، وحينها ستسلِّمُه قلبها

بسهولة، وحين تختار في هذه المرَّة ستختارُ اختياراً صائباً، وهكذا لن تشتكي أبداً.

كانت هبة تقصد فارس أحلام منى المُبجَّل، وكأنَّها بدأت تُصدِّقُ حكايات منى وأحلامها بفارسٍ يحتلُّ كيانها.

فتحت منى عينيها وكأنَّها استمعت للحوار بأكمله، وابتسمت ابتسامةً جذَّابة، ثُمَّ جلست لتسندَ كتفها على كتف والدتها قائلةً لها:

- لا تخشي على ابنتك. دعوني أُقرِّر ولو لمرَّةٍ واحدةٍ مصيري، فأنا أُريدُ في هذه المرَّة اختيار أميري بنفسي، وأُريدُ من يُتوِّجُني أميرةً على عرش قلبه، أُريدُ حُبَّاً حقيقيَّاً، وأرفضُ من يتملَّكُني بحجَّة عقد وشهود ليستعبدني تحت مُسمَّى بيت الزَّوجيَّة.

لامس كلامُ منى قلب أُمِّها، فاطمأنَّ فؤادُها، وأدركت أنَّ منى ستتزوَّج عاجلاً أم آجلاً، ولكن بقليلٍ من الصَّبر.

أملت والدتُها عليها الكثير من النُّصح، كونها فتاةٌ والأطماعُ من حولها كثيرة، ومنى كانت تُومِئُ لأُمِّها برأسها وتتمنَّى أن تُنهيَ كلامها بسرعة البرق، لا سيَّما أنَّها قد حفظت هذه النَّصائح عن ظهر قلب، كانت تتمنَّى أن تصمت والدتُها ولو لثانيةٍ واحدة كي تعيدَ على مسمعها ما تُمليه عليها من كلمات.

رحلت والدتُها بعد أن قبَّلت جبينَها مُتأمِّلةً عودة منى إلى منزلها من جديد، لكنَّ الابنة كانت ترفضُ الأمر بسبب كلام والدها القاسي بشأن زواجها وطلاقها.

نظرت منى إلى هبة، وقالت لها:

- سمعتُ هذا الكلام من والدتنا مئات المرَّات، ورُبَّما آلاف المرَّات، لم أُحصيها بعد، ولكن لمَ الرِّجالُ بمجملِهم سيِّئون؟ كُلُّ رجلٍ يُخطئ، والمرأةُ قد تُخطئ. المرأةُ حين تخضعُ للرَّجل يخضعُ هو بدوره لها، وحين يُسمعُها كلمات الغزل تذوبُ بين يديه عشقاً، وحين يُقبِّلُها تكونُ له كما أراد، وفي النِّهاية يتولَّدُ الخطأُ من الرَّجل والأُنثى على حدٍّ سواء.

أغلقت غرفتها وكأنَّ سِرَّاً غريباً فيها، وكأنَّها كانت تخشى على فارسها من الهروب، وإذا ما اشتاقت لغرفتها كانت تراها بعيدةً عنها قرابة مسير ساعات، فيها تعيشُ العشق منفردة، وفيها تحلمُ بكُلِّ ما تشاءُ وترغب.

وقفت أمام مرآتها تتساءلُ في سِرِّها عن هذه المفارقة العجيبة، فارسان يُريدان احتلال قلبها؛ أحدُهما شابٌّ، والآخرُ طيفٌ، وفي أحلامٍ مجهولةٍ يظهر. وهي لم تكن تُريدُ سِواه، وهكذا تضاربت مشاعرُها في تلك اللَّحظة. عقلُها يُريدُ مالكاً وقلبُها يُريدُ فارسها،

حتَّى إنَّها أخفت مشاعرها تجاه مالكٍ لتمنعها من الظُّهور مُجددَّاً، فهي لن تكون سوى لحبيبٍ اقتحم عالم أحلامها، وهو الأحقُّ بمشاعرها الجيَّاشة.

جلست أمام طاولتها، وفتحت دفترها، وسافرت عبر خيالها إلى أماكنَ عديدةٍ وهي ماتزال جالسةً في مكانها. لحظاتُ صمتٍ مرَّت بها قبل أن تشرعَ بالكتابة:

"اليومُ مُختلفٌ عن باقي الأيَّام، فوالدتي التي قاطعتني مُدَّةً لا بأسَ بها ها هي تأتي إليَّ الآن، ولا أدري لمَ؟

يناير اليومَ يحملُ برداً فظيعاً، رُبَّما حين يجتاحُني البردُ لا أتذكَّرُ سوى دفء أنفاسك، فأصبُّ آلاف اللَّعنات على يناير.

حبيبي وفارسي..

اليومَ لمحتُ ولهاً في عيني مالك؛ إذ كانت نظراتُه إليَّ تستنجدُني أن أُجيبَها، لكنِّي حاولتُ الهرب خوفاً على قلبٍ أودعته أمانةً لديك، ولا أدري إلى متى سأصبرُ على جنونه العشقيّ!

أميري العزيز:

اليومَ لمحتُ ندماً في عيني أحمدَ، أتراه نادماً حقَّاً أم أنَّه لم يحتمل أن يراني حُرَّةً طليقةً دون قيود؟ أتراه أحبَّني حقَّاً حين غادرتُ حياته؟ أم ماذا؟

سيدي المُبجَّل:

اليومَ لمحتُ نظرة رجاءٍ في عينيّ أُمِّي، لا أدري كيف لمحتُ تلك النَّظرة في عينيها، ولكن أدري بأنَّ والدتي تخشى عليَّ من الرِّجال جميعِهم. لم أُخبرها عنكَ خشية أن تُحذِّرني منك، رُبَّما لا يشملكَ قرارُ أُمِّي بأن أُقاطعَ الذُّكور كافَّة، فأنتَ خالدٌ في قلبي ما حييت.

أخبرني يا صديقي متى سيحينُ لقاؤنا؟ متى ستعودُ إلى واقعٍ يجمعُنا؟ لقد سئمتُ من تلك الضُّغوط، سئمتُ من حياةٍ لستَ فيها، وواقعٌ لا يجمعُنا لا أُريدُ العيش فيه.

عُدْ إليَّ ولو في حُلمٍ شهيّ، هي ثواني فقط أقتطعُها من أحلامي لتعبرَ ونلتقي.

أرجوكَ أُريدُ أن أراكَ بين سطوري من جديد، وأنا سأُطلقُ لقلبي العنان كي يكتب عنكَ كما يرغب، ولا أشكُّ بأنَّه سيتوّجُكَ فارساً بين السُّطور".

أغمضت عينيها ليتراءى لها فارساً بلا جوادٍ فتغدو أميرته ذات الرِّداء الورديّ وترقص أمامه كفراشةٍ من ذهبٍ بينما نظراتُه تهيمُ بها حُبَّاً.

ثُمَّ نامت أمام طاولتها من فرط ما فكَّرت بـه، لكن سرعان ما فتحت عينيها على رنين هاتفها، كان المُتَّصلُ مالكاً، فتعجَّبت ممَّا يُريدُه منها، وتساءلت عن سبب اتِّصاله بها!

ردَّت على مكالمتـه واستمعت لـه وهـو يُخبرُها بقلبٍ أذابـه حُبُّهـا، وشرح لها ما في قلبه من عشق. كان يتحدَّثُ بينما ظلَّت صامتةً تُجيبُه بين الفينـة والأُخرى بكلمـة "نعم" أو "لا"، سألها مراراً إن كان ثمَّة حُبٌّ يلوحُ في أُفق حياتها، لكنَّها أتبعت سؤاله بالصَّمت، فهي إلى الآن لا تعدُّ حُبَّ فارسها حُبَّاً حقيقيَّاً.

حين أيقن أن ليس لـه من منافسٍ سألها عن خوفها الشَّديد من التَّلفُّظ بكلمـة "حُبّ"، إلَّا أنَّها لم تُجبه حينها؛ لأنَّـه لن يفهمَها ولن يفهمَ الخوف الذي يعتريها.

اعتذرت إليـه، ثُمَّ أغلقت هاتفَها كُليَّاً خشيةَ معاودة الاتِّصال بها مُجدَّداً.

في تلك اللَّيلة الباردة لم تحلم بأيِّ شيء، ربَّما ثلجُ يناير كان سبباً في ذلك، فحبَّات الثَّلج كانت تتساقطُ لتُلامسَ النَّافذة مُصدرةً صوتاً عميقاً، ممَّا جعل نوم منى مُتقطِّعاً.

ورحل يناير وراء إخوتـه سريعاً، وأعقبـه شهرٌ آخر قارس. عاشت فيه منى أيَّاماً ولياليَ صعبة، وكانت في حالة ضياعٍ تامٍّ

تعيش، وكانت في حاجةٍ للحُبِّ الصَّادق، للحُبِّ النَّابع من القلب، ولا أحد يستطيع منحها إيَّاه سوى مالك، إنَّها تحتاجُ كتفاً تستندُ إليها في هذا الشِّتاء القارس، ومالكٌ وحده من يستطيع سحبها من بوتقة الأحزان، وكُلَّما ازدادت ليالي الشِّتاء برودةً ازدادت منى حنيناً لذاك المجهول.

تذكَّرت شتاءَها في منزل أحمدَ، وكيف كان ينقضي هناك! لم يختلف ببرده عمَّا هو عليه هنا في هذه الغرفة الصَّغيرة.

يغيبُ شبحُ أحمدَ عن عينيها ليتراءى لها مالكٌ وعلى فمه شبهُ ابتسامةٍ مكسورة، وفي عينيه لمحةُ حزنٍ وبريقُ أملٍ ودمعةُ ألمٍ، بينما في نظراته تتركَّزُ معاني الوله كُلُّها.

ولكن ما فائدة تقرُّبها من مالكٍ وفي قلبها يتربَّعُ رجلُ آخرُ؟! فحتَّى وإن كان طيفاً فهي تُكِنُّ له حُبَّاً كبيراً.

كانت تخشى الاقترابَ منه خوفاً من خيانةٍ منها إذا ما عاد فارسُها في حُلمٍ جديد، فكيف ستعيشُ حينها حتَّى وإن كان شبحاً في منام؟! الخيانةُ هي الخيانةُ سواء مع شبحٍ أو إنسان.

ماذا فعل لها قلبُ مالكٍ الطَّيّب لتركلَه بقدمها وكأنَّها لا تُبالي بتلك المُقلتين النَّازفتين؟! وما ذنبُها إن تنبَّأت بقصَّة حُبِّه وبفشلها قبل أن تبدأ؟! فقد أخبرته مراراً أنَّها امرأةٌ لم تعد تصلحُ للحُبّ.

امرأةٌ كان فيها شيءٌ حيٌّ، فذبل، كما أنَّ كُلَّ ما فيها قد مات، فكيف تُحاولُ يا مالكٌ سُقياها من جديد؟! لمَ تُحاولُ إحياءَ قلبٍ لم يعد فيه سوى بعض النُّدوب؟!

****

عاد مارس بربيعه الدَّافئ مرَّةً أُخرى دون أن يحملَ معه رسالةً من ذلك المجهول، فيه رأت منى ورود الرَّبيع وهي تتفتَّحُ من حولها، وكأنَّ الفراشاتِ كانت تتراقصُ على تلك الورود والعصافيرُ كانت تُغنّي لتلك الفراشات، وحتَّى الشَّمس كانت سعيدةً لإحساسها بسعادةِ منى في فصل الرَّبيع.

كُلُّ شيءٍ في الرَّبيع كان هادئاً، وهناك ملاكٌ كان يربتُ على كتف منى في كُلِّ حينٍ بأنَّ ثمَّة موعداً سيحصلُ قريباً. لقد تمنَّت في سِرّها أن يكون هنا.

نعم، كان ثمَّة موعد، والملاكُ لم يكذب بهذا الشَّأن؛ إذ جاءها وهي نائمةٌ وأخبرها بموعدٍ جديد.

مسح دمعتها الخجولة بطرف إصبعه، ثُمَّ قال لها بكُلِّ دفءٍ:

"عديني أن تبقي لي مهما حدث".

كانت تُفتِّشُ في عينيه عن لغزٍ مُبهمٍ أرادت كشف أسراره كُلِّها، وهو في الوقت ذاته أطال النَّظر إليها كمن يُحاولُ اكتشافها. هي لم تفهمه حتَّى الآن، ورُبَّما لن تفهمه في أيِّ وقت، فقد كان يُريدُ أن يثملَ من عينيها ويذوبَ سكراً، وهي على هدوءها مازالت تُحاولُ أن تفهمَ نظرة عينيه، وهدوءه الذي تجاوز الحدَّ ونظراته جعلاها تنجذبُ نحوه بقوَّةٍ دون أن تدري لماذا!

غاصت في حضنه، فضمَّها بكُلِّ حنانٍ وقوَّةٍ يمكن لعاشقٍ أن يتحلَّى بهما، فشهقت وهي مختفيةٌ في حضنه كأنَّها تهرب من الواقع إليه وإلى حضنه المُلتهِب. ربت على شعرها بكُلِّ حنانٍ وقبَّل جبينها كعادته، فأحسَّت منى بأنَّه سيرحلُ، وأنَّ رحيله في هذه المرَّة قد يكون أبديَّاً. لذلك لم تتمكَّن من حبس دموعها التي انسكبت بغزارة كالشَّلال، فمسح تلك الدُّموع وغاب كما جاء.

استنجدته ألَّا يرحل، ورجته أن يبقى ولو قليلاً حتَّى تفهمَه أكثر. نادته بصوت من يختنق، لكنَّه غاص في أعماق الأحلام، ولا أمل بعودته.

أفاقت وتلك الدَّمعةُ قد بدأت بالانسكاب بعد أن رحل، وظلَّت جاثمةً على خدِّها وكأنَّها تهزأُ بها، فمسحتها بقوَّةٍ وكأنَّها تحتقرُها، ثُمَّ نهضت لتكتبَ عنه من جديد:

"أأكتب يا سيدي الآن عن حزنٍ طالني وطالك؟!
لا تُنكر يا أميري أنَّكَ لستَ بحزينٍ، فالفراقُ هو الفراق.
أأكتبُ يا سيدي عن دروبٍ مجهولة الملامح حيثُ التقينا صدفةً وبدأنا نعيش أروع الأحلام ونحن نيام؟!
أأكتبُ يا سيدي عن أعوامٍ من القهر والألم وحالما رأيتُكَ في ذاك الحُلم أدركتُ حينها أنَّنا ذات يومٍ سيعشقُ كلانا الآخر دون أن أدري بأنَّ ذلك العشق سيبقى في أحلامٍ لن تُبصرَ نور الواقع إطلاقاً؟!
أأكتبُ يا سيدي عن ساعةٍ بنت العنكبوت بيتها عليها وهي تدقُّ في الوقت ذاته موعد الفراق؟! وعن أيِّ فراقٍ أتحدَّث إن كُنَّا نفترقُ أكثرَ ممَّا نجتمع؟!
أأكتبُ يا سيدي عن خيبةٍ تلتها جروحٌ وتلتها طعناتٌ أدمت القلب؟!
أأكتبُ يا سيدي عن غدر سهمٍ مازال إلى الآن عالقاً في ظهري وينزفُ دماً؟!
أأكتبُ يا سيدي عن غيابكَ الذي يطولُ لأشهرٍ حتَّى تعودَ مُجدَّداً مُحمَّلاً بشوقٍ عاصف؟!
إنِّي كُلَّما حاولتُ نسيانكَ اقتحمتَ عالم أحلامي مُجدَّداً لتتركني عالقةً في سماء الأحلام، رافضةً كُلَّ واقعٍ قد كُتِبَ دونك.

وكأنَّكَ علمتَ بمالكٍ الذي جاءني عاشقاً، فثارت عليكَ غيرتُكَ وجئتَ إليَّ لتدعوني أن أبقى معكَ، ومعكَ وحدكَ سأبقى.

هل أنا فتاةٌ حقَّاً ولستُ جنِّيَّةً مثلك؟!

إن كُنتُ فتاةً بحقٍّ لمَ لا تتركني أعيش كغيري من الفتيات اللَّواتي في عمري؟! إنَّهنَّ يعشقنَ إنساناً سويَّاً، لا شبحاً في أحلامٍ مختلفة.

لا تجعلني أسيرةً لكَ، أرجوكَ يا سيدي فُكَّ قيدي، واتركني أنعمُ بسلامٍ.

أنا لا أفهمُ تلك النَّظرات، ولا أفهمُ تلك الكلمات.

إنِّي حقَّاً بتُّ لا أفهمُ شيئاً.

بتُّ أخشاكَ يا سيدي كثيراً، فهل صعبٌ عليَّ أو مُحالٌ أن أعرفَ من أنت؟

هل رأيتَ عصفوراً يعشقُ سمكة؟!

فأنَّى لي أن أُحبَّكَ وأنتَ في الأحلام مُجرَّدُ طيفٍ وأنا في واقعٍ لا يمتُّ إليكَ بصلة؟!".

انتهت من الكتابة، وكعادتها أودعت دفترَها في درج الطَّاولة قبل أن تُغلِقَها بإحكامٍ خشية أن يهرب من بين سطورها.

بمسافةٍ ليست بالبعيدة عن الفندق ارتجلت منى من الباص، ومشت وورود مارس تُحيطُ بها من كُلِّ جانب، فكانت شقائقُ النّعمان تُزيّن الطَّبيعة وكأنَّها لوحةٌ رُسِمت بريشة فنَّانٍ مُبدع! سارت في الدَّرب ذاته الذي كانت تسيرُ فيه، ولكن في هذه المرَّة كان حاضراً في ذهنها يقبع دون رغبةٍ منه بالانفكاك، وكُلَّما حاولت طرده من ذهنها تمسَّكَ بها بقوَّةٍ رافضاً منها أن تتذكَّر شيئاً غيره.

تكرَّر في خيالها الحلمَ ذاته مئات المرَّات، وفي كُلِّ مرَّةٍ تكتشفُ شيئاً جديداً، كعينيه المليئتين بالحزن والفرح في آنٍ معاً، وهي لا تدري كيف قدِرَ على جمع التَّناقضات في شخصيَّته! كيف لا وهو رجلُ التَّناقضات؟!

وصلت إلى مكان عملها، وحاولت ألَّا تُكلِّمَ أحداً، فهي لم تُرد سوى صورته في ذهنها، لم تُرد تشويشاً من أحد. ولحسن الحظِّ كان مالكٌ مُتغيِّباً في إجازةٍ بسبب زواج أُخته الصُّغرى، ممَّا مكَّنها من العمل بالحاسوب بكُلِّ طلاقةٍ ويُسر.

بدأت تحتسي قهوتها برفقة أنغام فيروز وصوتها الهادئ:

"أنا عندي حنين ما بعرف لمين"

وكأنَّما كُتِبت هذه الأُغنيةُ بالذَّات لها وحدها، فكيف تنساهُ وكُلُّ شيءٍ في واقعها يُجبرُها على تذكُّره؟!

ارتعدت أوصالُها فجأةً لصوته الرَّخيم، وآخر شخصٍ كانت تتمنَّى رؤيته في ذلك اليوم بالذَّات هو أحمد. نظرت إليه فلاحظت ابتسامةً جميلةً على وجهه قد رسمها لأجلها.

لم تهرب منه بل استمعت إليه لتعرفَ أيَّ دربٍ سيسلك، وفي النِّهاية أخبرته بدربها الطَّويل الذي لن يلتقي بدربه المُعوجّ.

رأت حزناً حقيقيَّاً في عينيه حين طلبها من جديدٍ وهو نادم، شعر بالنَّدم؛ لأنَّه سمح لنفسه بإذلالها، ولكن كيف له أن يُعيدَ شيئاً كان قد كسره وأحاله ركاماً، ثُمَّ رقص رغم جراحها بسعادةٍ وحبور.

عيناه كانتا تُريدان التهامها، فكان وكأنَّه يُفتِّشُ عن مكمن قوَّتها، لكنَّها في لحظة ضعفٍ أخبرته أنَّ هناك من تملَّك قلبها، ولا مجال للتَّراجع. كانت تُريدُ التَّنصُّل منه بأيِّ وسيلة، لذلك أخبرته بهكذا جواب.

احمرَّت وجنتاه غضباً وأصبح كالشُّعلة المُتَّقدة، زفر، أرعد، صاح بوجهها، ثُمَّ أمسك بيدها بقوَّةٍ وهدَّدها بأنَّها لغيره لن تكون. تركها وغادر والغضبُ يأكله، فأمسكت بيدها التي احمرَّت من جرَّاء قبضة يده القويَّة ومسَّدتها برفقٍ وعلى شفاهها لاحت ابتسامةُ نصر، فهذه المرَّة لم تبكي، ولن تبكي، لقد كبرت على ذرف تلك الدُّموع الغبيَّة.

استطاعت بكُلِّ سهولةٍ أن تشرحَ لـه أنَّ العودة إليـه شبهُ مستحيلة، ولكن إذا تدخَّل والدُها لن يكون هناك شيءٌ مستحيل، ومرَّةً أُخرى سيُزَفُّ جثمانُها إليه في فرحٍ مَهيب.

إذا كان يُحبُّها فعلاً فما هو ترتيبها بين فتياتـه؟ لمَ بعد أن احتفلت بفراقها عنه عاد مُجدَّداً إلى ساحتها؟ لقد عاد ليُجبرَها على الرُّجوع إليه سواء حلالاً أو حراماً، فما يهمُّه أن تعودَ جاريةً كما كانت.

لقد استطاعت أن تُبكيه قهراً كما أبكاها، ورغم أنَّه لم يبكِ أمامها لكنَّ قلبه كان يذرف دمعاً وندماً. ربَّما الآن فقط عرف أنَّه خسرها، لقد خسر امرأةً لا تُعوَّض، فأنَّى له مثلها؟ بجمال أخلاقها وطيبة قلبها، لم تكن له زوجةً فحسب، بل كانت أكثر من ذلك، كانت له أُمَّاً في مرضه، وأُختاً في شكواه، وحبيبةً في فراشه. أمَّا هو فأبى أن يكون لها الزَّوج العطوف! كان لها سجَّاناً طمع في استباحة جسدها، وحين كانت له كما أراد هرب منها للقاء أُخريات كُثر. كان ينتقمُ من طيبتها بالهرب منها، وكان يتلذَّذُ بإذلالها حين يُحادثُ عشيقاتِه أمامها وكأنَّها صخرةٌ صمَّاء لا تسمع ولا ترى، كما كان يلمحُ دمعة الانكسار في عينيها ولا يرقُّ لها قلبه، لقد كان سعيداً لما يفعله بها!

والآن وقد ندم على كُلِّ ذلك، هل ستعود منى إلى ذاك البيت مُجدَّداً؟

****

استشاط أحمدُ غضباً في مكتبه لما سمِعه من منى، وبقبضة يده ضرب طاولة مكتبه بقوَّة، ممَّا أحدث شرخاً فيها، مُهدِّداً كُلَّ من يُحاولُ الاقتراب منها أو حتَّى لمسها، فهي ستبقى كما كانت مُلكاً أبديَّاً له، ولن يدع أحداً يأخذها منه حتَّى لو كلَّفه ذلك التَّوسُّل إليها.

ألهذه الدَّرجة بات يُحبُّها حتَّى يتوسَّل إليها وهو الرَّجلُ المجبولُ بكبرياءٍ لا يُقاوم؟ هل سيتوسَّلُ لمنى كي تعود إليه مُجدَّداً؟

حين هدأت نيران قلبه قليلاً جلس على طاولته حابساً رأسه بين يديه، وراح يُفكِّرُ في أسهل الطُّرق لجذبها نحوه. تساءل: من هو الذي تحدَّثت عنه منى؟ لقد تحدَّثت عن حُبٍّ يلوحُ في حياتها، فمن يجرؤُ على الاقتراب منها والتَّفكير بأخذها بعيداً عنه؟

استدعى مُوظَّفه المُخلص علي وأمره أن يُراقبَ منى، وألَّا يدَعَها تغيبُ عن ناظريه ولو لجزءٍ من ثانية بدءاً من خروجها من منزل أُختها وحتَّى عودتها إليه، طلب منه أن يخبرَه بكُلِّ شيءٍ يخصُّها،

ماذا تأكل، من تواعد، وكيف تسير. كُلُّها أشياء بات يهتمُّ بها ليرى من هو مُنافسه الجديد.

لبَّى علي طلبه بكُلِّ سرورٍ، وغادر ليبدأ تنفيذ هذه المهمة التي ليست بالمستحيلة، وترك أحمدَ في مكتبه وحيداً يُفكِّرُ بها، فهي وحدها التي سلبته عقله من جديد.

****

لم تكن بمزاجٍ جيّدٍ يُمكِّنُها من الحديث مع أُختها، ولهذا اعتكفت في غرفتها، وحبست رأسها في راحتي يديها وهي تُفكِّرُ بمجريات الأحداث. كانت الأحداثُ في ذهنها تتسارعُ بشكلٍ عجيب، ولكن إلى أين ستصلُ هذه الأحداث؟ وكفَّةُ من سترجح في النِّهاية؟ أهي لفارسها أم مالك أم أحمد؟ في النِّهاية هناك من سيفوز، ولكن من؟ ومتى؟ هي أسئلةٌ احتارت بها منى لسببٍ بسيط؛ لأنَّها لم تعرف أجوبتها.

قطعت هبة خلوتها وراحت تتأمَّلُها وكأنَّها ستُفارِقُها، وهو كذلك حتماً، فها هي هبة تأتيها بأخبارٍ سيِّئة. لقد دخلت غرفتها دون أن تدقَّ الباب، دخلت الغرفة بهدوء مصطنعٍ وجلست قبالة منى وهي مُندهشةٌ لاقتحام أُختها غرفتها الصَّغيرة:

- والدُنا يُريدُ منكِ العودة إلى المنزل، إنَّه لا يُريدُ منكِ البقاء خارجه أكثرَ من ذلك. غداً سيأتي لاصطحابك، فهيّئي نفسك.

نظرت منى إلى هبة مُتفاجئةً من كلامها، لمَ يُريدُ والدُها إعادتها الآن؟ هل هناك جنازةٌ أُخرى، جثمانٌ آخر، عريسٌ جديد؟ أم أنَّه أحمدُ ذاته؟

هربت الكلماتُ من فمها بسهولة كما يهربُ فارسها عادةً، وانهمرت تلك الدَّمعةُ المسكينةُ وهي لا تدري في أيِّ حضنٍ ستنسكب.

لقد صبر عليها والدُها قرابة سنتين دون أن يُجبرَها على العودة إلى داره، لمَ الآن بالتَّحديد يطلبُ أن تعودَ إليه؟ هو يأمرُ وهي ما عليها إلَّا الإطاعة رغماً عنها، فهذا أمرٌ لا مفرَّ منه، وربَّما سيجلبُ لها سكِّيناً أُخرى ليشرعَ بذبح ما تبقى منها وهي راضية مرضيَّة، وهم سيتراقصون كما يحلو لهم على نغم جراحها النَّازفة!

ربتت هبة على شعرها بحنان فارسها، وضمَّتها بقوَّةٍ وكأنَّ لسان حالها يقول:

"أنا معكِ، ولن أتركك".

ولكن في ذروة الشِّدَّة الكُلُّ سيتخلَّى عنها بمن فيهم فارسُها.

- لن يُجبرَكِ في هذه المرَّة على شيءٍ يا منى. ثقي به هذه المرَّة فقط، فهو بمنأى عن زواجٍ فاشلٍ جديد. رُبَّما هو نادمٌ على ما فعله بكِ، ولذا أَحبَّ في هذه المرَّة اصطحابكِ بنفسه من هنا.

خرجت هبة لتترك منى تكتبُ لفارسها ما تشاء من كلامٍ محبوسٍ في صدرها، فوجده من يسمعُها دون أن يُسكِتَها:

"سأتركُ هذه الغرفة يا فارسي، سأتركُ أجملَ أيَّامٍ عشتُها معكَ على هذا السَّرير، وستُصبحُ مُجرَّد ذكرى لا تُنسى.

لا أدري إن كُنتُ سأراكَ مُجدَّداً، لا أدري إن كُنتَ ستعرفُ عنواني، فتأتي إليَّ في أحلامٍ مجهولة المعالم.

هناك، حيثُ الوحدةُ، لا أصدقاء لي، أتقبلُ أن تكون صديقي؟

لا تهجرْني، أنا أرجوك. إن كُنتُ هنا أو هناك فقلبي لن ينبضَ إلَّا لكَ، لكَ وحدك.

كيف لي أن أُخبرَ أبي عن صورتكَ التي رسمتُها ذات شتاءٍ بعد أن رأيتُكَ واضحاً جليَّاً؟

اعذرني يا فارسي، ربَّما عليَّ أن أُخبِّئَها لقدرٍ يجمعُنا، وربَّما سأُمزِّقُها لأشلاءٍ صغيرةٍ كي لا يراكَ أو يُغرَمَ بكَ أحد، فأنا أغارُ جدَّاً على من أعطيتُه قلبي.

أمَّا أحلامكَ فسأحتفظُ بها في قلبي، ولن أُجاهِرَ بحُبِّكَ؛ لأنَّه ما من مُصدِّقٍ لحكايتنا! سيرونها ضرباً من ضروب الأساطير أو حكايةً من حكايات ألف ليلةٍ وليلة.

إن كُنتَ واقعاً فسأُخفيكَ عنهم، كيف وأنتَ لا تظهرُ سوى في أحلامٍ غريبةٍ بعض الشَّيء؟!

سيسجُنني أبي ذات يومٍ في سجنٍ صغيرٍ يكونُ بارداً كالثَّلج، وطالما أنَّه لا تُوجدُ نفحةٌ من أنفاسكَ فيه فلن يكونَ بمقدوري أن أصرخَ حينها، ولن أستطيعَ أن أهربَ إليك.

اعذرني يا فارسي، لقد طال انتظاري كثيراً، ولم أركَ إلَّا في أحلامٍ قد اخترتَها أنتَ لترتع بها كما يحلو لك، وكأنِّي حجرُ شطرنجٍ في يدك، تُحرِّكُه كما تشاءُ وترغب.

أُريدُ أن أرى ابتسامتكَ الحقيقيَّة ولمعة عينيك ودفء حضنك، أُريدُ أن أشعرَ بهمساتكَ وقبلاتكَ بيديكَ الدَّافئتين وهي تحتضنُني، أو حينما تربتُ على شعري. كُنتُ أُحِسُّ بهذا كُلِّه، لكنِّي لم ألمسك! والآن أُريدُكَ واقعاً كي أختبرَ مشاعري نحوك.

أُريدُكَ أميراً في حكايةٍ من حكاياتي الواقعيَّة.

سامحني يا سيدي؛ لأنَّ الأيَّام القادمة ستكون مُتعِبةً بحقّ، وقد لا يتسنَّى لي أن أكتبَ عنك حتَّى".

ذهبت إلى نومها مُبكِّراً، ولم تكن تُفكِّرُ به في تلك اللَّحظات؛ لأنَّ قلمها اختصرَ كُلَّ شيءٍ في رسالة حُبٍّ واحدة.

نامت سريعاً بعد أن قرَّرت ألَّا تحمل همَّاً وألَّا تدع مجالاً للحياة لتعبث بها كيفما تشاء، وهكذا استطاعت أن تصرخَ في وجه الحياة من جديد، فلتلعب بها الحياة كما رغبت فهي لن تصرخَ في هذه المرَّة ولن تبكي، بل ستبتسم ورُبَّما ستضحك، ستضحكُ رغم المحن، فهي لا تملك خياراً آخرَ، لن تلويها أوجاعُ الحياة، وهي لم تعد صغيرةً لتنتحب على كُلِّ شيء. نامت بعد أن رضخت لأمر واقعها مُتناسيةً حبيباً اعتاد أن يزورَها في الأحلام.

استيقظت على رنين المُنبِّه اللَّعين فوق الطَّاولة التي بجانبها، أسكتته، ثُمَّ نهضت كعادتها مُتمنِّية النَّوم أكثرَ لعلَّها تحظى بدقائقَ معه، فلرُبَّما كانت الدَّقيقة الأخيرة هي موعد اللِّقاء.

خرجت من المنزل واضعة يديها في جيب سُترتها، وسارت ببطءٍ شديد، ومع ذلك لم تلحظ علي وهو يتبعها، ثُمَّ دلفت إلى الفندق بينما ظلَّ علي بانتظارها خارج الفندق، بابتسامةٍ يتخلَّلها الوجع دخلت وبوجهٍ أجبرته على الانشراح قليلاً كي تُحسِنَ التَّعامل مع الزَّبائن بكُلِّ لطفٍ وأدب.

كان يومها يسيرُ ببطءٍ شديد، وقد حمدت ربَّها على انتهاء ذاك اليوم بهدوءٍ دون أن يقتحمَ حياتها كما العادة أيُّ أحد.

خرجت من الفندق وبدأت تسيرُ على مهلٍ وكأنَّها على موعدٍ مع الموت، أطالت النَّظر أمامها وكأنَّها تبحثُ عن شيءٍ سقط منها، أو رُبَّما كانت تبحث عن حياةٍ جديدةٍ لتعيشها، عن حُبٍّ وُلِدَ في أحلامها فلم يعد يُمكنُه أن يموت حتَّى في أحلامها، عن حُبٍّ لم يُولد بعدُ ولكن شاء له أن يموت. هي لم ترغب بموته، وإنَّما أرادت أن تُحييه لتحيا به.

نظرت نحو اليمين واليسار، فهل كانت تبحث عنه؟ هل كانت تبحث عن طيفٍ في اللَّاوجود؟! ماذا ستُقولُ للنَّاس عنه؟! أبحثُ عن حبيبٍ من طيفٍ قد خُلق! رُبَّما ملاك، أو من ملوك الجانّ!

كان يزورُها في الأحلام كُلَّ مساءٍ كاللِّصِّ المُتخفِّي خوفاً من انفضاح أمره، وكعادة تلك الدَّمعة البائسة التي باتت أكثرَ حزناً من صاحبتها سقطت لتختفي في العدم كما اختفى فارسُ منى.

كُلَّما حاولت أن تصرخَ بأعلى صوتها بأنَّها أصبحت أكثر قوَّةً من ذي قبل عادت الدَّمعةُ لتنسكب وتُفنِّدَ ادِّعاءاتها الكاذبة. لقد اعتقدت بأنَّها قويَّة، لكنَّ قلبها كان حتَّى تلك اللَّحظة هشَّاً، وهنا سارعت إلى مسح الدَّمعة البائسة بكُلِّ غلٍّ وحقدٍ، ورسمت ابتسامةً

واسعةً كقرص الشَّمس معلنةً ضرورة أن تبقى الطَّرف الأقوى في كُلِّ معادلةٍ تنصب لأجلها، وهكذا لن يجرؤَ أحدٌ على كسر ابتسامتها.

****

وحين دلفت إلى المنزل وجدت والدها في انتظارها، كان مايزال قاسياً صلباً كما عرفته، شامخاً كالنَّسر، ابتسامتُه منذُ من زمن مُغيَّبة، ولا تُرى في قسمات وجهه سوى تجاعيد الزَّمن.

رحَّبت به بفتورٍ في حين رحَّب بها بعناقٍ أبويٍّ حارٍّ، رُبَّما كان يُحاوِلُ استدراجها إلى المنزل ليفعلَ بها ما يشاء، ويُزوِّجَها لمن يشاء. لم تُعطِه الفرصة لفتح أيِّ حوارٍ، استأذنته على الفور لتُوضِّبَ ملابسها.

صعدت إلى غرفتها وبدأت بتوضيب ملابسها في الحقيبة بكُلِّ هدوء، وحين فرغت من ذلك جلست أمام طاولتها، وأخرجت ذاك الدَّفتر من مكانه السِّرِّيِّ، وبدأت تقرأ لحبيبها، بدت كأنَّها تعيشُ الحُبَّ من جديد، كيف لا وفي كُلِّ سطرٍ تراه؟! لقد قال لها من قبلُ:

"اكتبي عنِّي لتعيشي بي".

لم تكن تُدرِكُ أنَّ الحُبَّ سيغدو أجمل حين تُدوِّنه، أيُّهما أجملُ؟ حُبٌّ تحلمُ به أم حُبٌّ تكتب عنه أم حُبٌّ تعيشه؟ كانت منى في حيرةٍ

بين الخيارات الثَّلاث، لكنَّها حلمت به فدوَّنت حُلمها، ثُمَّ ماذا؟ أما آن له أن يصيرَ واقعاً لتعيشه.

استطاعت منى أن تعيش الحُبَّ من خلال سطورٍ وكلمات، يتنفَّسُ هواء حبرها، ويقتاتُ على الكلمات. بطلُها كان فارساً مقداماً لكن دون جوادٍ كان، سخيَّاً ومعطاءً في الحُبِّ أيضاً كان، فأنَّى يتسنَّى لها حبيبٌ كهذا في واقعٍ سيطرت عليه شهوةُ الجنس والمال والنُّفوذ؟! ضمَّت دفترها إلى صدرها وكأنَّها تضمُّه هو، ثُمَّ استنشقت عطره النَّفَّاذ الظَّاهر من بين الكلمات، ووضعته بكُلِّ حنانٍ بين طيَّات ملابسها لتُخبِّئه عن عيونٍ لا تُضمِرُ لها سوى الأذى.

انتزعت صورته من على الحائط وضمَّتها، قبَّلتها وكأنَّها تتنفَّس، وكأنَّها تُطالبُها بالمزيد من الغمرات والقُبلات. كيف لا وعيناه اللَّتان في اللَّوحة لا تنطقان سوى بالحُبِّ؟! لكنَّ الواقع فرض نفسه عليها فرضاً، وهنا يجبُ أن تنحنيَ له إجلالاً. قبَّلت الصُّورة قبلة الوداع الأخيرة ومزَّقتها إرباً، حتَّى استحالت في لمح البصر أشلاء، ثُمَّ رمتها في سلَّة المهملات دون وعيٍ منها.

وقفت لتُودِّع وجهها الذي طالما لمحته في تلك المرآة الصَّلبة المُعلَّقة في غرفتها، رُبَّما أرادت أن تُودِّعَ منى القديمة وتستقبلَ منى بشخصيَّتها الجديدة:

"بمَ أُحدِّثُكِ أيَّتُها المرآة؟

أَأُحدِّثُكِ عن امرأةٍ مُطلَّقةٍ نبذها المجتمع؛ لأنَّها كانت جريئةً في اتِّخاذها خطوةً تتمنَّاها معظم النِّساء؟!

إنَّ قوانين مجتمعنا ظالمة، وصار من العُرف أن يعدَّ النَّاسُ منى ومن مثلها عاراً، ويجب الخلاص منهنَّ أو التَّشهير بسمعتهنّ.

أَأُحدِّثُكِ عن امرأةٍ تزوَّجت بعقدٍ تجاريٍّ مُثبَّتٍ مع العقد الشَّرعيّ دون أن تُكمِلَ الثَّامنة عشرة من عمرها، وحين فشلت المصالح التِّجاريَّة فشل زواجها الشَّرعي؟!

أَأُحدِّثُكِ عن مُطلَّقةٍ لا يراها الذُّكورُ سوى متعةٍ لهم، ويتراكضون إليها وكأنَّها تغويهم وتناديهم هيت لكم؟!

أَأُحدِّثُكِ عن مُطلَّقةٍ تخشاها النِّساءُ وتخشى على أزواجهنَّ منها؟!

إنَّهن يتهامسن فيما بينهنَّ وكأنَّها لا تسمع ولا ترى! تلك التي باتت تُخبِّئُ زوجها خوفاً على نفسها من أن يُسرقَ منها، وتلك التي لا تتحدَّثُ عن زواجها أمام من تخشاها مخافة الحسد، وتلك العجوزُ الهرِمَةُ التي تُخبِّئ بناتها خشية إفساد تربيتهنَّ، وهؤلاء النُّسوةُ الجالساتُ على قارعة الطَّريق يتناولن المُكسَّرات ويرمينَ قشورها في الشَّارع أمام المارَّة، إنَّهن يتغامزنَ حين يلمحنني وقد تأخَّرتُ عن بيتي خمس دقائق، فيبدأ الكلام بنهش عرضي كما يحلو لهنّ".

تنهَّدت بعمق الألم الذي يجتاحها، ثُمَّ قالت:
"وهل لأنّي لم أرضَ عيشة الذُّلِّ والهوان يصبح وأدي سهلاً إلى هذه الدَّرجة؟!".

طرقَ والدُها باب الغرفة لاستعجالها؛ إذ نسيت في خضمِّ همومها والدها الذي كان ينتظرها في الأسفل.

خرجت إليه بخطواتٍ مُتثاقلةٍ وكأنَّها تُزَفُّ إلى الموت من جديد، حمل عنها حقيبتها السَّوداء الثَّقيلة، بينما سارعت لتودِّعَ أُختها التي كانت في انتظارها في الأسفل، عانقتها عناقاً مُطوَّلاً وكأنَّها لا ترغب في الرَّحيل عنها إطلاقاً، فهي قطعةٌ منها ورحيلُها عنها كمن يرحلُ عن جسده، لكنَّ الرَّحيل هو الرَّحيل.

ركبت في السَّيَّارة بجوار والدها، وانطلقا معاً، بدت السَّيَّارةُ تسير ببطءٍ شديدٍ، فلمَ؟ أتراها قد تضامنت مع منى في عذاباتها المستقبليَّة؟!

وصلت أخيراً إلى منزل طفولتها، وها هي تعود إليه بعد أربع سنواتٍ من الغياب. وجدت والدتها في انتظارها عند الباب، عانقتا بعضهما بشدَّةٍ، ثُمَّ دخلتا المنزل ويداهما مُتشابكتان. لم يتغيَّر في البيت أيُّ شيء، حتَّى إنَّ الورود الاصطناعيَّة مازالت في مكانها، وذاك البلبلُ كعادته يُغرِّدُ دوماً حين يُفتحُ الباب. لقد أحضر والدها شاشة تلفازٍ

جديدةً بدلاً من القديمة، أمَّا ما تبقى من أشياءٍ في البيت فقد ظلَّت ثابتةً في مكانها.

أجلستَها والدتُها بجوارها أمام النَّافذة، وراحتا تتحدَّثان في أمورٍ شتَّى. لقد وجدت عائلتها تحتويها من جديد. إذن، لم تكن عاراً عليهم كما ظنَّت، ولن يظلموها مرَّةً أُخرى، كما لن تكون منبوذةً ولن يتمَّ وأدُها، ولن تُساقَ إلى سجنٍ آخر.

كسر والدُها شرودها حين سألها عن عملها في الفندق، وإذا ما كانت سعيدةً به أم لا، وإذا ما كانت ثمَّة مضايقاتٌ لها أم لا.

فأجابته بسعادتها هناك مع طاقم العمل وسائر المُوظَّفين.

أملى عليها نصائحَ جمَّةً عن كيفيَّة تعاملها مع المُوظَّفين وكيفيَّة صنع حواجزَ بينها وبينهم كي لا يطمعوا بها وكأنَّها المرأةُ الوحيدةُ التي على الأرض والتي سيُعجبُ بها كُلُّ رجلٍ يُصادفُها! كانت تكتفي بهزِّ رأسها بين الفينة والأُخرى علامةً على أنَّها تُوافقُه الرَّأي في كُلِّ ما يتفوَّه به.

وفجأةً سألها عن أحمدَ إن كانت قد التقت به في الفندق أو خارجه، فردَّت باختصار بأنَّها لمحته مرَّاتٍ عدَّة، ولكن ما الدَّافع من سؤالها عن أحمد؟ هل هو يُخطِّطُ لمذبحةٍ أُخرى بحقِّها؟ هل يمكن أن يكون أحمدُ قد أخبر والدها عن حبيبها السِّرِّيِّ، فقام هذا الأخير

بإحضارها إلى هنا كي لا تُدنِّسَ شرف العائلة؟ أم أنَّ والدها يُحاوِلُ إعادتها إلى أحمدَ قبل أن يخطفها آخر؟

وفاجأها أكثر حين بدأ يمدحُ أحمدَ أمامها وكأنَّه ملاكٌ بريءٌ، راح يمدح خصاله الجيِّدة التي لم ترها منى وهي في بيته، فكيف ظهرت هذه المحاسنُ كُلُّها دفعة واحدة؟! قد قالها والدُها صراحةً:

- إنَّ أحمدَ مازال راغباً بك، وهو يُريدُ إعادتكِ إليه.

انتفضت منى من سماع تلك الكلمات، فاستأذنت بارتباكٍ ملحوظٍ لتدخلَ غرفتها مُسرعةً هاربةً من تيَّارٍ عاصفٍ كان على وشك أن يجرفَها، ثُمَّ أوصدت باب غرفتها جيِّداً كي لا يقتحمَ أحدٌ حياتها من جديد، فمشاعرُها بدأت بالتَّضارب حين دخلتها، ما بين ذكرياتٍ قديمةٍ أدركت مسبقاً أنَّها ستحِنُّ إليها وما بين مستقبلٍ مجهول المعالم.

وعلى سريرها ذي الفراش الوثير جلست لتُصفِّي ذهنها قليلاً. يا لجماله وملمسه النَّاعم! لقد عادت بها الذَّاكرة سنين إلى الوراء حتَّى قبل أن تُشيَّع إلى أحمد. هنا لا تُوجدُ مرآةٌ كبيرةٌ كما في تلك الغرفة في منزل أُختها، هنا خزانةٌ مُتوسِّطةُ الحجم، ولكن في بابها من الدَّاخل مرآةٌ بحجم ذلك الباب، وباستطاعتها أن تتحدَّث إلى منى وقت ما تشاء وكيفما تشاء. أخرجت دفترها من حقيبتها السَّوداء

وضمَّته إلى صدرها كما لو كان وليدها الذي غاب عنها سنين طويلة، ثُمَّ جلست أمام طاولتها لتكتب لفارسها:

"أيا فارساً اشتاقَ إليه قلبي كما اشتاقت له عيناي.

أَتدري الآن يا صديقي بأنِّي أكتب إليكَ وأنا في غرفتي ذات الأثاث القديم؟ لقد عُدتُ إليها بعد أربع سنواتٍ من الهجر فبدت وكأنِّي لم أغب عنها يوماً.

غرفتي يا فارسي صغيرةُ الحجم، جدرانُها متآكلةٌ بفعل الرُّطوبة النَّفَّاذة إليها. لها نافذةٌ دائريَّةٌ صغيرةٌ فيها كسرٌ من جانبها الأيمن ممَّا يُسهِّلُ على الرِّياح الباردة العبث بالغرفة كما تشاء، والشَّمسُ يا أميري ترفضُ كُلَّ الرَّفض الدُّخول إلى غرفتي وكأنَّها في خصامٍ تامٍّ معي يمنعُها ذاك البناءُ الأبيضُ الضَّخمُ الذي يحجبُ عنِّي شروق الشَّمس ودفئها، فلا أستمتعُ بغروبها ولا بشروقها.

وأثاثُ غرفتي يا فارسي بسيطٌ جدَّاً، ففي الوسط سريرٌ خشبيٌّ ذو غطاءٍ ورديٍّ مُزيَّنٍ بزهراتٍ من الياسمين والفُلِّ ناصع البياض، ووسادته ذاتُ الشَّيء أيضاً. وفي الجانب خزانةٌ سوداءُ متوسِّطةُ الحجم مصنوعةٌ من الخشب الصَّلب، وعليها صورٌ عدَّةٌ لسندريلا وفارسها الشُّجاع. لم أنسَ يا فارسي هذه الطَّاولة الخشبيَّة الصَّغيرة وما عليها من كتبٍ ذات طابعٍ دينيٍّ. لم تكن هذه الكتب من قبل

هنا! رُبَّما وضعها والدي ليُقوِّمَ اعوجاجي، كي لا أنفلتَ من بين أصابعه! أمَّا هذا المقعدُ الخشبيُّ الذي أجلس عليه الآن غدا مُهترءاً بعض الشَّيء. لا تخف يا فارسي لن أسقط من عليه، فأنا خفيفةُ الوزن وصغيرةٌ بعض الشَّيء.

هذه غرفتي المتواضعة قد وصفتُها لك.

أَيُرضيكَ هذا؟ أَتُعجبُكَ غرفةٌ بتلك المواصفات؟

هل ترغب بزيارتي بعد أن وصفتُ لكَ بتفصيلٍ مُملٍّ أين سأقضي أيَّامي القادمة؟

أرجوكَ لا تغب عنِّي طويلاً. كن لي مؤنساً في غرفتي هذه، فدونكَ لا أصدقاء لي".

قرَّرت منى الاعتكاف على نفسها في غرفتها وجعلها سجناً جديداً لها. ها هي عادت لتأسر نفسها مُجدَّداً؛ إذ لم يتغيَّر من حولها شيءٌ سوى تلك الجدران المتآكلة. والآن لم تعد تُريدُ إقحام نفسها في نقاشاتٍ مع أيِّ أحد، لم تعد تُريدُ سوى الاختلاء بنفسها لتعيش حُبَّاً عظيماً غير مرئيٍّ لأيِّ أحد.

لقد باتت نظرات من حولها إليها تُرعبُها وكأنَّهم يتحدَّثون عن منفىً جديدٍ لها!

****

اكتظَّ البيت بالأهل والأقارب من النُّسوة اللَّاتي حضرن لزيارة منى بعد غياب سنين، فنادتها والدتُها لتجلس معهنَّ وتبادلهنَّ النِّفاق الاجتماعيَّ قليلاً.

في هذه المرَّة لم ترتدي فستانها الورديَّ، بل ارتدت فستاناً أسودَ قصيراً، وزيَّنت شعرها بشريطةٍ سوداءَ دون أن تضع على وجهها أيَّاً من مساحيق التَّجميل، فبدت مُرغمةً على مجالستهنَّ، وظهرت لهنَّ كحوريَّةٍ من حوريَّات الجنَّة قد خرجت.

نزلت بكُلِّ ثقةٍ، صافحتهنَّ الواحدة تلوَ الأُخرى بابتسامةٍ مُصطنعةٍ رسمتها على وجهها مُرغمة، ثُمَّ جلست بجوارهنَّ ليتناولن أحاديثَ عامَّةٍ، ولم تشأ أيُّ واحدةٍ منهنَّ أن تُحدِّثَ منى بأيِّ حديثٍ يخصُّها، لكنَّ نظرات الشَّفقة التي بانت عليهنَّ لم يستطعن أن يُخبِّئنها، فاستاءت منى من تلك النَّظرات، ولم تحتمل نظراتٍ كانت تُراقبها بكُلِّ حزنٍ وكأنَّها خارجةٌ للتوِّ من مُصيبةٍ عظيمة.

وحين هربت من نظراتِهنَّ وتنصَّلت منهنَّ وجدت نفسها في حجرتها الضَّيِّقة، أغلقت بابها وكأنَّها تحرَّرت منهنَّ. كانت منى تُحاوِلُ قدر المستطاع ألَّا تحتكَّ بأحدٍ بسبب العادات البالية التي رسخها مجتمعها وزرعها في عقول النِّساء والرِّجال الجهلة.

وأخيراً سمعت صوت إغلاق باب المنزل، فتنهَّدت بعمقٍ فرحةً لمغادرتهنَّ سريعاً، لكن سرعان ما جاءت والدتها لتُعاتبَها على هروبها منهنَّ، وهو ما يُسمَّى في أعرافهنَّ بـ (قلَّة الذَّوق). لم تُجبها منى بأيّ كلمة؛ لأنَّها كانت تعرف تمام المعرفة أنَّ جوابها لن يرضي والدتها على أيّ حالٍ. أخبرتها والدتُها كم تتمنَّى هي ووالدها أن يرياها عروساً من جديدٍ ليطمئنَّا عليها قبل أن يباغتهما الموتُ، فتبقى وحيدةً دون سندٍ تستند إليه.

أدركت منى أنَّ والديها محقَّان في ذلك، فأيُّ أبٍ وأُمٍّ يتمنَّيان لابنتهما الاستقرار حتَّى يرتاحا من عبءٍ يُثقِلُ كاهليهما، فالمرأة كما يعتقد النَّاس ليس لها مفرٌّ من بيت زوجها. ولكن ما ذنبُها إن كانا قد اختارا لها بيتاً من زجاجٍ، بيتاً سرعان ما انكسر؟! ألا يجدرُ بها أن تختار الآن بيتاً من حديدٍ صلبٍ يُقاومُ الكوارث جميعها ويبقى صلباً قاسياً؟!

عادت أُمُّها لتخبرَها عن عرسٍ لإحدى قريباتها، وأنَّ عليها أن تحضر الحفلة، فرُبَّما كان هناك من يراها ويُعجبُ بها. في سجنها هذا ستظلُّ كما هي، ولن يراها أحد. لم ترغب منى بالحضور، فهي لن تكون سلعةً مرَّةً أُخرى، بينما لم يُدرِك أهلها بعدُ أنَّها كائنٌ له

الحقُّ في الاختيار، هي ليست بضاعةً فاسدةً يرمونها لأوَّل عابر سبيل.
قاومت منى عناد والديها، وبكت قدر المستطاع. لقد توسَّلت إليهما أن يتركاها وشأنها، ففي كُلِّ ساعةٍ يكون هذا الموضوع شغلَهما الشَّاغل، وكأنَّها حين تتزوَّج ستُنقذُ البشريَّة من ضياعٍ مُحتَّم!

****

كان عملُها قريباً من منزلها ممَّا سيُسهِّلُ عليها الذَّهاب إليه سيراً على الأقدام، وهي لم تكن تنظر إلَّا إلى وقع أقدامها، فهي قد تعبت من هذه الحياة ولا تُريدُ شيئاً سوى تركها تنعمُ بسلامٍ دون أن تُفكِّرَ في شيءٍ البتَّة، حتَّى فارسها قد خاب ظنُّها به ولم تعد تُريدُه، فهو كان ماهراً بلعبة (الغميضة) وهي في المقابل لم تكن تُجيدُها، وهو كان ماهراً بلعبة (الفوازير) وهي لم تكن بمستوى ذكائه.
ومالكٌ ذلك الشَّابُّ المتواضعُ الذي كانت منى تختفي كُلَّما لمحته، كي لا تلمحَ نظرات الشَّوق في عينيه.
أحمدُ المغرورُ ذو الكبرياء الحادِّ الذي وإن أتاها راكعاً لن تُعطيَه قلبَها مُجدَّداً، وإن أُرغِمت على العودة إليه ستهربُ منه ألف مرَّةٍ، ورُبَّما آلاف المرَّات.

دلفت إلى بهو الفندق وابتسامة الرِّضا تعلو شفتيها؛ إذ شعرت بالرِّضا عن حياةٍ قاسية عاشتها، فغدت تبتسم لكُلِّ خيبةٍ آلاف البسمات.

وراء حاسوبها جلست تعملُ بكُلِّ جدٍّ ونشاطٍ برفقة أنغام فيروز الصَّباحيَّة وفنجان قهوةٍ ذابَ بين يديها حين ارتشفت منه.

رآها بعد شوق أيّامٍ ورُبَّما أسابيع، فلاحت على شفتيه ابتسامةُ مُحبٍّ، تأمَّلها ليحفظ قسماتِ وجهها قبل أن يجلسَ بجوارها كعادته الجريئة. أحسَّت بأنفاس الشَّوق اللَّاهبة تكادُ تحرقُها، وهي لم تعرف متى عاد ولم يهمَّها أن تعرف! رُبَّما يئس من محاولاته المُتكرِّرة لاستمالتها، لكنَّ صدق أنفاسه الصَّاعدة كذَّبت ادِّعاءاتها. نظرت إليه بصمتٍ لتلمحَ فرحةً لم ترها من قبلُ وكأنَّ ابتسامته تلك قد نطقت بالشَّوق، ولمحت الهيام في نظراته وكأنَّ عيناه نسرٌ جارحٌ أراد اختراقها.

- الحمدُ لله على سلامتك.

قالتها بخجلٍ مُطأطئةً الرَّأس.

- شكراً، وأنتِ لمَ مازال الحزنُ في عينيك مرسوماً؟

ابتسمت، فسقطَ قلبُه ولهاً بجمال ابتسامتها. لله دُرُّها، ما أروعها!

- أنا لستُ بخير، مُتعبٌ بحجم السَّماء، وبي من الهموم مايفتكُ بي ويشدُّ عليَّ وحدتي وضيقي.
- ممَّا تشكو؟ لعليّ أُساعدكَ على تخفيف تلك الجراح.
- هل أنتِ جادَّةٌ في ذلك؟ هل بإمكانكِ تخفيف الآلام عنِّي وأنتِ تعلمين بأنَّ كُلَّ الآهات التي تصرخُ في قلبي هي منك؟

تلعثمت، وارتبكت، واحمرَّت وجنتاها خجلاً، طأطأت رأسَها من جديدٍ لمُدَّة خمس ثوانٍ، ثُمَّ رفعت ناظريها إليه مُجدَّداً وكأنَّ عينيها أرادتا البوح بما يختلجُ صدرها لعلَّها تُخفِّفُ أعباءً باتت تُثقلُ كاهلها، وبصوتٍ هادئٍ يشوبُه الحزن:

- أدري ذلك يا صديقي، وأعرفُ جيّداً أنِّي سبب تلك الأحزان التي تجتاحُكَ. أنا أوجدتُ تلك الآلام في فؤادك، لكنِّي يا صديقي لم أعدكَ بشيء، وكما تعلم بأنِّي كُنتُ أتهرَّبُ منكَ لتفهمَ أنَّ قلبي ليس لك، فهناك من خطفه قبلكَ، ولا أستطيع السَّير معكَ في درب حُبِّكَ؛ لأنَّ هناك من يُسيّرُني رغماً عنِّي في دروب حُبِّه المُتشعِّبة. إنَّ قلبي يشكو الحُبَّ لغيرك، سأخونك إذا كُنتُ معه، وسأخونه إن كُنتُ معك.

ترقر الدَّمعُ في عينيه وهو ينظرُ إلى عينيها العسليَّتين، وقال لها بصوتٍ يُشبهُ الهمس:

- هل أعرفه؟ هل عُدتِ إلى من كان سبب حزنك أم هناك آخر؟ هل هو منافسٌ شريف؟ سأُحاولُ، فرُبَّما استطعتُ الفوز بكِ وربح قلبكِ من جديد.
- صدِّقني، لا تعرفه، حتَّى أنا لم أره من قبل، ولكنِّي على ثقةٍ بأنِّي سأجتمعُ به ذات شتاء، أو رُبَّما ذات صيف.
- هل هي فزورة؟ كيف ملكَ قلبكِ وأنت لا تعرفينه؟
- نعم، هو فارسي، خُلِقَ من العدم، من اللَّاوجود، وفي أحلامٍ عابرةٍ اجتمعنا لنرسمَ الحُبَّ سويَّةً ونصنعَ لنفسينا فضاءاتٍ لا مُتناهيةٍ من الآمال.
- فارس، أحلام، طيف، أوهام! هل تعشقين شخصاً رأيتِه في الأحلام؟! هل بنيتِ حياةً واقعيَّةً على طيف؟! هل ستنجبين أطفالاً في الأحلام أيضاً؟! هل ما تفوَّهتِ به الآن حقيقةٌ أم نسجٌ من خيال؟!

اغرورقت عيناها بالدُّموع؛ لأنَّه لم يكن لأحدٍ أن يفهمَ مشاعرها، ولو أنَّها عبَّرت عن أحلامها لمالكَ فرُبَّما فهمَها؛ لأنَّه كان يعيشُ الحُبَّ مثلها، لكنَّها اختارت أن تغرسَ السِّكِّين في القلب الخطأ. سارع مالكٌ إلى مسح دموعها، فهو وإن رُفِضَ الآن من قِبلها يبقى مالكاً الذي تُؤلمُه تلك العينان حين تغشاهما الدُّموع، مع أنَّ دموعَها وهي تبكي تبدو نهراً من عسلٍ طيِّب المذاق. كانت

عيناه تُريدان التهامها والعوم في ذلك العسل، كانت تلك العينان تهيمان بعينيها، وكان يرغبُ في ضمِّها ليبكيا سويَّةً على صدري بعضهما البعض، لكنَّه استعاد رباطة جأشه أخيراً.

- سأبقى على عهد حُبِّكِ إلى أن تلتقي بنصفكِ الآخر، حتَّى وإن كان طيفاً. سأبقى بجانبكِ كما تُحبّين، صديقاً، أخاً، أباً، ورُبَّما يُسعفُني الحظُّ أن أكون حبيباً. سأنتظرُكِ وسأفتحُ ذراعيَّ لكِ إن جئتِ إليَّ يوماً بقلبٍ مُحبّ.
- شكراً لكَ يا صديقي لعدم خذلانكَ لي، شكراً لإنصاتكَ لمشاعري ووقوفكَ معي، أشكركَ على حُبِّكَ لي، شكراً يا صديقي.

ابتسمت تلك الابتسامة الجذَّابة، وابتسم هو بدوره لجمال ابتسامتها، ثُمَّ هرب من أمامها قبل أن تلحظَ دمعته التي كسرت كبرياءه والذي جاهد مُطوَّلاً على إخفائها إلَّا أنَّه لم يُفلح، فنظر إليها من بعيد، رآها سعيدةً، ثُمَّ رحل.

لقد أدركت أنَّها أوجعت قلبه وأنَّها كانت قاسيةً عليه، كما أنَّها الآن أصبحت تُدرِكُ ما هو الحُبُّ، وتُدرِكُ أنَّ مالكاً أَحبَّها حقَّاً، ولكن ما ذنبُها إن جاءها في زمنٍ خاطئ؟ ما ذنبُها إن نادت الحُبَّ كثيراً ولم يسمع نداءاتها سوى فارسها المغرور؟ ما ذنبُها إن جاءها بعد أن دقَّ الحُبُّ قلبُها وهامت به؟

كانت على علمٍ بأنَّها أذابت قلبه وأخرست أوجاعه، ولكن لا بُدَّ لها من أن تهربَ منه بأيّ وسيلةٍ حتَّى لو غرست سكِّيناً ذات نصلٍ حادٍّ في فؤاده المُتيَّم بها.

كانت هذه هي المرَّة الأُولى التي تُؤلم بها منى أحداً إلى هذه الدَّرجة. تأوَّهت بعمق، زفرت، وأخرجت ما في قلبها أخيراً، ولكن لمن؟ لأكثر من هام بها، لأكثر من فُتِنَ بها، لأكثر شخصٍ آلمته آلامُها وهي من كانت سبباً بإيلامه في تلك اللَّحظة.

بعد ما حدث أصابها الشُّرود حتَّى أخطأت في حسابات الزَّبائن، وبدأت تعتذر لهذا وذاك، لتلك العجوز، ولذاك الصَّبيّ الصَّغير. كان يجب أن تُصفِّي ذهنها، لا أن تعمل وهي في حالة الفوضى تلك.

****

خرجت من الفندق وكعادتها في السَّير ظلَّت عيناها مُثبَّتتان دائماً إلى موقع قدميها وكأنَّها كانت تبحث عن ذاتها على الرَّصيف بين أوراق الشَّجر المُتساقطة هنا وهناك، وقد أحسَّت أنَّ العيون جميعَها أرادت التهامها وكأنَّها قد ارتكبت خطيئةً ما.

سمعت كلام غزل من شبابٍ مراهقين طائشين، والتقت عيناها بعيون الرّجال الطَّامعين، فهرولت إلى الحافلة هرباً من تلك العيون.
وأخيراً دلفت إلى البيت دون أن يلمحَها أحدٌ، فهي في ذاك اليوم لم تُرد فتح أيّ بابٍ للنِّقاش. دخلت سجنها أخيراً، وأغلقت على نفسها بألف مفتاحٍ، وها هي الآن قد أصبحت بمأمنٍ من كُلِّ ما أحاط بها من شَّرّ.
حاولت أن تتَّصل بمالكٍ؛ لأنَّها أوجعت قلبه، فما كان لها أن تتحدَّثَ عن حبيبها لمالكٍ، وهو الذي كان لها مُحبَّاً!
لقد ارتاحت لمالكٍ كثيراً، فكأنَّها كانت تتحدَّثُ إلى مرآتها، باحت بما أرهقَ قلبها، باحت بسرٍّ دفنته لسنوات، حتَّى خرج وانفجر بوجه مالكٍ العاشق المُتيَّم. استطاعت أن تلمحَ عبَرَات عينيه وهي مُتَّقدةٌ على خدَّيه، وإن حاول جاهداً إخفاءها فهي قد جرحته فعلاً، جرحت كبرياءه رغماً عنها، لكنَّها كانت تُريده صديقاً فحسب، صديقاً لا حبيباً، فهل فهم مالكٌ رسالتها هذه؟

****

سار مالكٌ على غير هدى، وفي كُلِّ دربٍ سار فيه تذكَّر كلامها الذي غُرز في قلبه كسهمٍ قاتل. أيُعقلُ هذا؟! أتراها جنَّت؟! أم تراها لم تجد حلّاً للهروب منه سوى اختراعها لتلك القصَّة؟!

جلس على مقعدٍ كبيرٍ ذي لونٍ بنيٍّ في حديقةٍ صغيرة، وتحت ظِلِّ شجرة النَّارنج ورائحتها العطرة بدأ يُفكِّر: كيف استطاعت أن تجرحَه بكلماتها عن وهمٍ لا أساس له؟! كيف سمحت لنفسها أن تجرحَ كبرياءه؟! كيف نجحت في قتل الفرح بداخله بهذا البرود؟! كان برودُها فظيعاً فلم يحتمله وهو من كان يتَّقد كجمرةٍ مُلتهبة.

وضع رأسه بين يديه، وصرخ صرخةً مكتومة، صرخةَ آهٍ ووجع، فصبراً يا نفسي على البلوى! صبراً يا مالكٌ على حُبٍّ ضاع منكَ قبل أن ينمو! ومن سرقه في النِّهاية؟ طيف! وهم! سرابٌ زائل! لمَ لم تكن المنافسةُ عادلة؟! كيف لطيفٍ أن يُنافسه؟! كيف له أن يراه فيُخبرَه بمدى عشقه لمُنى؟! كيف يُخبرُه عن غرامه الذي أسره لحظة دخولها بهو الفندق؟! كيف له أن يُخبرَه بسعادته حين يسبحُ في عسل عينيها؟! لم ينتبه لتلك الدَّمعة التي هوت إلى القاع، فلامست آلاماً في قلبه الهشّ. هل كانت تعشقه إلى هذا الحدّ؟! هل تعشق طيفاً وتخاف من الوقوع في حُبِّي كي لا تخونني مع طيف؟!

ظلَّ يُحدِّثُ نفسه والأفكار تتصارعُ في ذهنه رافضةً الانصياع له بالخروج من رأسه كي يهنأ بالسَّلام. لا يجب أن يُفكِّرَ بها، هذا ما حدَّثته نفسُه به حين صرخ بأعلى صوته بأنَّه يُحبُّها، فكان الرَّدُّ صاعقاً بأنَّها ليست من حقِّه، ولكن يجب عليه إنقاذُها من وهمٍ مُسيطرٍ عليها، ولا يجبُ أن يدعَها تغرقُ في أوهام خلقتها لنفسها. هي مازالت صغيرةً وتائهةً ومازالت تبحثُ عن تلك اليد التي ستنتشلُها من ضياعٍ مُحتَّم، ومن ذلك السِّرداب المُظلم سيمدُّ يده لينتشلها، وحينها ستُدرِكُ أن ليس لها حبيبٌ سواه. لا تُوجدُ أطيافٌ هنا، لا أحد يُصدِّقُ كذبةً كهذه.

وقف مُنتشياً وعلى فمه لاحت ابتسامة، قرَّر أن يُساعدَها على التَّخلُّص من ذلك الطَّيف بحُبِّه لها أكثرَ فأكثر. وهذا يعني أنَّ مالكاً لم يفهم بعد رسالة منى جيّداً.

بعث لها برسالةٍ يُطمئنُها بها بأنَّه سيبقى بجانبها دائماً وأبداً، فابتسمت حين قرأت رسالته وقد ظنَّت أنَّه فهمها وفهم حُبَّها الغريب هذا. ردَّت عليه بكلمة شكرٍ واحدةٍ فقط، فابتسم هو الآخرُ ابتسامة سخريةٍ كمن يسخرُ من جراحه العميقة. لقد كان جوابُها مُختصراً، فهي إلى الآن لم تُدرِك الطَّعنة القاتلة التي وجَّهتها إليه.

كانت كلمة الشُّكر هذه كافيةً لتتدفَّق عبرَاته كشلَّالٍ غزير، وحينها أدركَ أنَّه خسرها.

****

كاد ذلك الفستانُ القصيرُ ذو الدَّانتيل المُموَّج يلتهمُ جسدها حين ارتدته، فظهرت كواحدةٍ من أميرات ديزني، لم تنسَ أيضاً أن تضع القليل من مساحيق التَّجميل لتبدو كعادتها أنيقة، وسِرُّ أناقتها ينبعُ من جمال ابتسامتها، كما تزيَّنت ببعض الحُليّ ممَّا أعطاها رونقاً خاصَّاً، أمَّا شعرها فقد أسدلته على كتفيها كشلَّالٍ مُتموِّج. وهكذا جهَّزت نفسها مُرغمةً لحضور حفل زفاف إحدى قريباتها، وهي التي كانت تكره أجواء الاحتفالات خاصَّة بعد طلاقها، لكنَّ والدتها أجبرتها على ذلك وكأنَّها أرادت أن تعرضها للملأ كي لا تبور!

كانت الأعين تُحملقُ فيها حين دخلت القاعة المزخرفة، فبدأت عيناها تبحثان عن طاولةٍ جانبيَّةٍ كي لا تجلس بجوار أيّ واحدةٍ من النِّساء ذوات الفضول غير المُحبَّب، ولكن لسوء حظِّها كانت جميع الطَّاولات محجوزةً ممَّا اضطرَّها مرغمةً أن تجلس أمام واحدةٍ في منتصف القاعة.

لاحظت الأعين وهي تُحدِّقُ بها، ولم تلمح سوى عيونٍ ثاقبةٍ تتجمهر حولها من كُلِّ حدبٍ وصوبٍ وكأنَّها من كوكبٍ آخر، أو كأنَّما ارتدت زِيَّاً لحفلةٍ تنكُّريَّة. وما إن أخفضت بصرها قليلاً حتَّى سمعتهنَّ يتهامسن وأنظارهنَّ تُريدُ التهامها.

قالت امرأةٌ طلت وجهها بالكثير من مساحيق التَّجميل:

- انظروا إلى هذه المرأة، قد طلَّقها زوجُها منذ سنتين ونصف سنة، وهي الآن في بيت والديها.

في حين قالت الأُخرى:

- سمعت عنها، فهي لم تُكمِل بعدُ عامها الثَّاني في بيته، ولم تُنجب له ولداً.

قالت الثَّالثةُ بعد أن وضعت ساقاً على ساق:

- رُبَّما كان ذلك سبب طلاقها، فأيُّ رجلٍ يحلم بأولاد يحملون اسمه.

عادت الأُولى لتقول:

- لقد طلَّقها؛ لأنَّها عنيدةٌ ولا تسمع كلامه.

وفي حين أنَّ إحداهنَّ مازالت بوضعيَّة جلوسها تلك قالت في غرور:

- رُبَّما رآها مع غيره، فثارت غيرته، وطلَّقها لهذا السَّبب، فواحدةٌ مثل هذه لا يهمُّها إن خرجت مع زوجها أو مع غيره.

كُنَّ ينهشنَ عرضها وهي صامتةٌ تكادُ النَّار تأكلها من شدَّة الغيظ. وحين بدأ الحفل سمعت همساً جديداً من طاولة أبعد قليلاً:

- إنَّها مسكينة، لاتزال صغيرةً ليحدث معها هذا.
- زوجُها مازال يرغبُ بها، لكنَّها لا ترغب به. إنَّها تُريدُ أن تبقى حرَّةً طليقةً لا يُقيّدُها رجل، حتَّى إنَّها استقرَّت عند أُختها حين حصل الطَّلاق، ومنذ مدَّةٍ قريبة أرجعها والدها إلى البيت عنوة.
- من سيرغب بها بعد هروبها من بيت زوجها وطلاقها منه، ومن ثمَّ هروبها من منزل أهلها؟ (يا رب، سترك علينا).

كفكفت دموعها السَّخيَّة في حين كان العريس يُراقصُ عروسه بشغفِ عاشقٍ على مرأى من كان في الحفل، وفي تلك اللَّحظات عادت بها الذَّاكرة إلى يوم زفافها وأحمد يُراقصُها وعيناه تكاد تلتهمها. تذكَّرت تلك الحفلة التي كان كُلُّ من فيها مُبتهجاً ما عداها! كانت صغيرةً حينها، ولم تكن تفهم شيئاً بعد، وكان الحاضرون يرقصون ويُغنُّون في جنازتها، يُشيّعونها إلى مثواها اللَّانهائي وهم يتمايلون على إيقاع الأغاني وكأنَّهم سَكارى. في مساء ذلك اليوم هنَّأها الجميع ودعوا لها بالسَّعادة في أيَّامها القادمة.

ومن كان ذاك الشَّابُّ الجالسُ بجوارها ويدها في يده مرغمةً وكأنَّه يُمسكُها بإحكامٍ كي لا تُفلت منه، كان غريباً ثُمَّ خطيباً ثُمَّ زوجاً ثُمَّ عاد غريباً، عاد يطلبها من جديدٍ ليسير على النَّهج ذاته وتُعاود الحلقة الدَّوران من جديد.

استيقظت من ذكراها الأليمة على يد خالتها تسحبها للرَّقص مع الفتيات الأُخريات، سحبتها من يدها عنوةً، لقد ذكَّرتها بنفسها التي كانت ترقص بفرحٍ في يوم دفنها، وها هي تعود مُجدَّداً لتجرَّها إلى مسلخٍ جديد. رفضت الإذعان لطلبها بتوتُّرٍ بادٍ على ملامحها ممَّا اضطرَّ هذه الأخيرة لمغادرة الطَّاولة.

وفجأة لاحت ابتسامةٌ على شفتيها؛ لأنَّها تذكَّرت فارسها وهو يُراقصُها في أحلامها. من يدري رُبَّما سيراقصها في واقعٍ باتت متأكِّدةً من أنَّه سينشئه لها، ومن أجلها.

انتهى العرس بعد أن كاد صبرُها ينفدُ من تلميحات النُّسوة عليها، ورحل العريس مع عروسه إلى حيثُ ينتظرهما الحُبُّ والسَّعادة والهناء، ورحلت منى إلى بيتها حيثُ الأحلامُ والوحدةُ والآلامُ بانتظارها.

دخلت غرفتها لتكتب له بعد انقطاعٍ دام لأشهر؛ إذ لم يتسنَّى لها الكتابة خلالها، وهو غائبٌ عنها مذ دخولها هذه الغرفة. لقد أعجبته لعبةُ التَّخفِّي هذه، أو رُبَّما لم يُعجبه مكوثها المُطوَّل في سجنها البارد هذا:

"أكتبُ إليكَ يا فارسي ويداي مشتاقتان للمس يديك.

أكتبُ إليكَ؛ لأنَّ عينيَّ تفتقدان اللَّيل الأسود في عينيك، وكُلِّي اشتياقٌ لصدى أنفاسِكَ، لأحضانكَ وهمساتكَ ونظراتكَ، للحُبِّ الذي جمعنا في ذاك الحُلم.

قُل لي –بالله عليك– لمَ تعشقُ التَّخفِّي هكذا؟

لمَ تلعبُ لعبة الهجر بعد أن تعلَّق قلبي بقلبكَ؟ ولمَ تهجرني باختفائكَ في طيِّ النِّسيان؟

قلبي مازال على عهد حُبِّكَ إلى أن نلتقي في واقعٍ يجمعُنا سويَّةً، وكُلُّ ما أتمنَّاه منكَ الآن يا حبيباً دائم الغياب ألَّا تُعلِّق قلبي بكَ مُجدَّداً وألَّا تترك قلبي عالقاً بين الأحلام والواقع.

عُدْ إليَّ ولو بحُلمٍ قصيرٍ لأعيش أيَّاماً أتغذَّى فيها ببحر حُبِّك".

غاص فؤادها بين سطور الوحشة، ولم تستطع أن تُكمِلَ أكثر من ذلك، لا كلمات تصفُ حُبَّها أكثر ممَّا كتبت.

أتنامُ الآن؟ رُبَّما جاءها في حُلمٍ جديد، أم تظلُّ جالسةً بصمتٍ وهي تستمع إلى أنين قلبها وهو يناجي الحُبَّ من جديد؟ استسلمت أخيراً ونامت نوماً مُتقطِّعاً تاركةً تلك الدَّمعة اللَّئيمة تسرح على خدِّها وتلعب كيفما تشاء.

حين أشرقت الشَّمس أجبرتها على فتح عينيها العسليَّتين فلمعتا كالوهج المُتَّقد، وهبَّ النَّسيم فداعب خصلات شعرها المُسدل على كتفيها كعادتها في وقت النَّوم.

لم تحلم به، ممَّا زاد على خيباتها خيبةً جديدةً، ولم تحلم بأيِّ شيءٍ أيضاً.

نهضت من سريرها مُتململةً، وارتدت ملابسها ببطءٍ وهي مشغولةُ الفكر، ثُمَّ خرجت من منزلها دون أن تلقي تحيَّة الصَّباح على والدتها كي لا تُعطيها بعض النَّصائح الصَّباحيَّة، وهي بغنىً عنها الآن، وخاصَّة في مثل هذه الأوقات حيثُ التَّوتُّر والقلق في أعلى درجاتهما.

بدأت العمل باستخدام حاسوبها بكُلِّ هدوءٍ وهي ترتشف القليل من فنجان قهوتها، فظهرت كملكةٍ مُتوَّجةٍ على عرشٍ من ذهب.

وحده مالكٌ من لقَّبها بذلك، وهو ينظرُ إليها من وراء ذلك الجدار الصَّغير. خمسُ دقائق كانت كافيةً ليشيحَ وجهه عنها، لكنَّه لم

يحتمل ذلك فأعاد النَّظر إليها مُجدَّداً وهو يتأمَّل كُلَّ تفاصيل جسدها كمن سيغيب عنها دهراً، وحين اقترب منها لم تلمحه أوَّل الأمر لشدَّة انشغالها بعملها الذي كُلِّفت به:

- هل فكَّرتِ جيّداً قبل خوضكِ تجربةً هي فاشلةٌ قبل أن تبدأ؟
- وإذا أتاني الحُبُّ واقعاً برأيكَ ألن أندم؟
- إذا كُنتُ أنا من فتح لكِ باب الحُبِّ فلن تندمي إطلاقاً.
- ولكن، أنا لا أُريدُ حُبَّك! أُفضِّلُ العيش في أحلامي.

كانت هذه المرَّة الثَّانية التي تُقدِمُ فيها منى على جرح مالكٍ ببرودٍ شديدٍ دون أن ترأفَ بحاله، وهي التي تُجرِّبُ الحُبَّ الآن لم تهتمَّ لأمر هذا العاشق الولهان، جُلُّ همِّها كان إبعاده عن ساحتها. نظر إلى عينيها مُطوَّلاً بعينيه اللَّتين كانتا تنطقان الصِّدق، فهو لم يُرد منها سوى نظرة حُبٍّ واحدة، ولكن حتَّى بهذه النَّظرة بخلت منى عليه، لقد تحاشت النَّظر إلى عينيه كي لا تغرق في تفاصيلهما. كانت بالفعل قاسيةً معه، مع من أعطاها الأمان منذُ نظرته الأُولى، ولكن ما ذنبُها هي إن كان ما حصل معها قد جعلها تلعنُ الحُبَّ ألف مرَّةٍ وتتجنَّبُه ألفي مرَّة؟! سيجرُّها الحُبُّ إلى عوالمَ مجهولةٍ من الدُّموع والألم، إلى أرقٍ لن يُفارقَها، حيث ستنعدمُ شهيَّتُها وينحلُ

جسدُها، وستُصابُ بالقلق والشَّوق إن غاب أو حضر. هذا ما سيحدثُ إن فتحت القلب لمالك، فرُبَّما عبث به كغيره.

وما إن انتهت من شرودها حتَّى رفعت ناظريها لتلحظَ اختفاء مالكٍ وظِلِّ مالك. عادت إلى حاسوبها من جديد، وراحت تُفكِّرُ في فارسها الذي تلألأت صورته في ذهنها لاإراديَّاً وكأنَّه يقول لها أن لا فرارَ منه إلَّا إليه. نفضت رأسها جيّداً لتعاودَ العمل من جديدٍ تاركةً قصَّة هيامها للأيَّام تفعلُ بها ما تشاء.

ضرب أحمد الطَّاولة بقبضته اليمنى وهو يزفرُ غضباً صارخاً في وجه علي مُؤنِّباً إيَّاه، كيف لم يعثر على أيّ شيءٍ يُدينُها به! أراد أن يُهدِّدَها به فيما بعد، فتعود إليه خائبةً ذليلةً كما في السَّابق.

شهرٌ كاملٌ داوم خلاله على مراقبتها ولم يلحظ على سلوكها أيَّ شيء، من بيتها إلى عملها وبالعكس. ماذا عن حُبِّها المزعوم الذي تحدَّثت عنه؟! أيعقل أن تكون كاذبة؟! لوى فمه قليلاً قبل أن يحمل دُخانه ومفاتيحه ليضعَهما في جيبه ويخرجَ مسرعاً، ركب سيَّارته ذات اللَّون الأسود ومضى ليواجهَها بكذبها، كيف تجرؤ على الكذب عليه؟! لقد أضحت صعبة المراس، وأنَّى له أن يفهمها والعناد

أصبح طبعاً من طباعها؟! استطاع لمح الكره يُطلُّ من عينيها، وقرَّر أن يُرجعَها إليه كما كانت قطَّةً أليفة. سيسجنُها في قفصه من جديد، وسيرفضُ أن ترى أيَّ مخلوقٍ غيره. أراد أن يُروِّضَها كما كانت عنده، فهي له قبل أن تكون لغيره.

لقد عدَّها حصَّةً من ذهب وعليه أن يُقاتلَ ليحصل عليها، وبعد حصوله عليها سيعمل جاهداً على دفنها جيِّداً، ولكن من عساه يخبره بأنَّ منى إنسانٌ ولها الحقُّ في الحياة؟!

لم ينزل من سيَّارته، بقي فيها قليلاً كي يُرتِّبَ أفكاره المُعقَّدة إلى أن رآها خارجةً بمفردها بِزيِّها الورديّ القصير. كم كان يكرهُ هذا الفستان عليها! كان يزيدها جمالاً فتُثيرُ غرائزه، وهنا احتقر نفسه؛ لأنَّه فرَّط بها. احتقر نفسه؛ لأنَّه الآن بالذَّات لا يحقُّ له الصُّراخ في وجهها ولا أن يمنعَها من ارتداء الألوان الزَّاهية. كان يكرهها حين ترتدي هذا اللَّون؛ لأنَّه يطبعُ على خدَّيها اللَّون الورديَّ ذاته، فتكتسب وجنتاها حمرةً طبيعيَّة، فيظنُّ النَّاظر أنَّها قد تزيَّنت بالكثير من مساحيق التَّجميل.

وبلمح البصر نزل من سيارته وسار باتِّجاهها كما البرق، أمسكها من ذراعها عنوةً وكأنَّه يُخبرُها بأنَّها ستكون له شاءت ذلك أم أبت.

تفاجأت منى من تصرُّفه الأرعن هذا، فما كان منها إلَّا أن صرخت في وجهه طالبةً منه أن يُفلتَ يدها:

- أُريدُ التَّحدُّث إليكِ.
- أتمنَّى أن توجز، فأنا على عجلةٍ من أمري.
- حدِّثيني عن الشّابِّ المُتيَّم بكِ.
- لا يهمُّ من يكون، المُهمُّ ألَّا تدخل حياتي مُجدَّداً.
- من سيأخذُكِ منِّي؟! من يجرؤ على ذلك؟!
- يا لغروركَ المتعالي!

أفلتت يدها من قبضة يده، وسارت على غير هدى دون أن تلتفتَ إليه، كان همُّها الوحيدُ الخلاصَ منه. في هذه المرَّة لمحت الخوف في عينيه ممَّا جعلها تثقُ أنَّها الطَّرف الأقوى، وهكذا لم تعد تلك الفتاة الضَّعيفة كثيرةُ البكاء.

****

اتَّصلت بصديقتها وهي مستلقيةٌ على السَّرير تُؤرجحُ قدمها في الهواء ويدُها تُداعبُ خصلات شعرها الكستنائيِّ، وأخبرتها بضرورة الإسراع في إيجاد عملٍ جديدٍ لها، فهي لم تعد تُطيقُ العمل في هذا الفندق، فمالكُ وأحمدُ لن يتركاها تنعمُ بالسَّلام. إنَّهما

يضغطان عليها، وهي خائفةٌ من ردَّة فعل والدها إن هو علم بالأمر. رُبَّما سيسجنُها في سجنٍ من اختياره هو، أو سيُعيدُها إلى أحمدَ مُكبَّلة اليدين ومغمضة العينين كما في سابق عهدها، وهذا الخيارُ لا ترغب به إطلاقاً، أو رُبَّما سيسجنُها في سجنٍ باردٍ إلى أن يأتي مزايدٌ آخرُ ويدفع أكثر، فما هي إلَّا ثروة في نظر والدها ذي الطَّبع الماديِّ الجشع! إنَّه حين ييأسُ من أمرها سيدفعُها إلى مالكَ عنوةً ليستر عليها قبل أن تقوم بجلب العار له على حدِّ تعبيره.

أخبرتها صديقتُها بأنَّها ستعمل جاهدةً على إيجاد عملٍ مريحٍ لها، فارتسمت على شفاه منى ابتسامةُ نصرٍ. هي ستبقى قويَّةً كما أقنعت نفسها من قبل، ولن تدع أيَّ أحدٍ يهزمُها.

خبَّأت دفترها كي تُصفِّي ذهنها من كُلِّ التَّراكمات العالقة به، وفي ذلك الوقت بالذَّات حتَّى فارسها لم ترغب به.

قرَّرت أن تُغيِّرَ بعضاً من تفاصيل حياتها، فبدأت ترتادُ المطاعم مع صديقاتِها، وعاودت الجلوس مع عائلتها، كما صارت تتحدَّث هي ووالدتها في أمورٍ شتَّى. زارت العديد من الأصدقاء، وفي كُلِّ يومٍ كانت تذهب إلى بيت أُختها لتتسامرا سويَّةً قبل أن تعودَ أدراجها إلى البيت.

ذهبت إلى الفندق وباشرت بتقديم استقالتها مُتذرّعةً برفض والدها عملها، وأسرعت تُلملِمُ حاجيَّاتها. كانت عيناها تُراقبان السَّاعة في وجلٍ وكأنَّها خائفةٌ من شيءٍ ما، رُبَّما كانت خائفةً فعلاً، فهي تنوي الهروب من حُبٍّ أراد استهدافها. أرادت الهرب قبل أن يُفتحَ قلبُها للحُبِّ، كانت تهرب من حُبٍّ جاءها واقعاً إلى آخرَ تعيشُه في أحلامها، وهي لم تُرد أن تُسجن مرَّةً أُخرى باسم الحُبِّ، فرُبَّما تغيَّر هذا الحُبُّ مع الزَّمن، وهذا ما كانت منى تخشاه. فور انتهائها من توضيب حاجيَّاتها انطلقت إلى البوَّابة، فاستوقفها صوتُه الهادئ:

- لم أعرفكِ جبانةً إلى الحدِّ الذي يُجبرُكِ على الفرار هكذا قبل وداعي!

التفتت إلى مالكٍ لتلمحَ آثارَ الحزن باديةً على ملامحه الهادئة. لم يطل صمتها كثيراً، اعتذرت إليه بصوت يُشبهُ الهمس.

- لمَ ترحلين هكذا؟
- هو رُبَّما خوفي من حُبٍّ جديدٍ قد يطرقُ باب قلبي. هل تُريدُ شيئاً قبل أن نفترق؟
- رُدِّي إليَّ قلبي، رُدِّي إليَّ مشاعري، رُدِّي إليَّ أشهراً من اللَّوعة والُحبِّ! هل تقدرين؟

اغرورقت عيناها بالدُّموع، وتراجعت إلى الوراء بضع خطواتٍ لتهربَ بسرعةٍ وتختفي بين الزُّحام.

أدركت أخيراً أنَّها جرحته جرحاً بالغاً، أدركت بعد فوات الأوان أنَّه أَحبَّها حُبَّاً جمَّاً، فهل وقعت في غرامه فعلاً حتَّى هربت منه بتلك الطَّريقة؟ لم يكن الذَّنبُ ذنبها، هو قد جاءها في زمنٍ خاطئ.

سارت في طرقٍ فيها آلامٌ انبعثت من قلب الصُّدور، وفيها أحلامٌ تمنَّت راجيةً فعل المستحيل. نظرت إلى أوراقٍ صفراءَ سقطت من أغصان شجرةٍ شامخةٍ لتُنبِئَ بأنَّ في الحياة لا بُدَّ أن تتجدَّد الأحلام. باتت أحلامُها كشجرة خريفٍ لا تحمل سوى اليأس في الأفئدة والدَّمع في العيون.

وجلست على المقعد ذاته الذي اعتادت الجلوس عليه في كُلِّ مرَّةٍ يضيق بها الواقع، وبدأت تذرف العَبَرَات على حُلمٍ سَرق منها أروع الأيَّام. وضعت رأسها بين يديها وراحت تُفكِّرُ تارةً بمصيرها الذي ينتظرها وتارةً أُخرى تذرف الدَّمع على من كانت سبب شقائه وعلى من كان سبب شقائها أيضاً.

أغلقت باب غرفتها وراءها بعد أن شيَّعت حُبَّاً كان بمقدوره أن يُسعدَها، كانت تُفكِّرُ بما فعلته لمالك، هل فعلت الخطأ أم الصَّواب؟ رُبَّما كانت تنتقم من أحمدَ، فظهر لها مالك، فإذا بها تُشبعُه انتقاماً.

كان باعتقادها أنَّ كُلَّ رجلٍ هو أحمد، وأحمدُ يُمثِّلُ كُلَّ رجل. رُبَّما ظنَّت فارسها مختلفاً؛ لأنَّه جاءها في الأحلام فحسب، وربَّما لأنَّه لم يكن لها واقعاً، فرسمت له في ذهنها صفات الرُّجولة كما شاءت.

لم تعد تكتب إليه، فهي باتت أشدَّ إلحاحاً لرؤيته واقعاً، وكُلَّما حاولت أن تكتب اشتاقت له أضعافاً مضاعفة، وهو العاشق المُتمرِّد.

تقلَّبت كثيراً في فراشها، وأخيراً أغمضت عينيها على خوفٍ ودموع؛ إذ لم تعد تستطيع الفرار من بحرٍ جفَّ ماؤه.

جاءها أخيراً بعد أشهرٍ من القطيعة، فوقفت تنظر إلى عينيه اللَّامعتين كظلام اللَّيل بقلبٍ أذابه الحُبُّ، وهو نظر إليها بفؤادٍ حطَّمه الهوى. لقد كانت مُولهةً به، وهو كان مُدلَّهاً بها حدَّ الجنون.

بدأ يُراقصُها وراح يُخبرُها بقصَّة عذابه، كما أخبرته هي بقصَّة حُبِّها، وفجأةً طبع على جبينها قبلةً رقيقة. نظراته إليها كانت تُربكُها وإن كانت في حُلم، وحين لامس خدَّها بيده الدَّافئة وطبع قبلةً عليه تورَّدت وجنتاها خجلاً، ثُمَّ همَّ بالرَّحيل. لم تشفع لها دموعُها المُنسكبة، رأته حين دخل تلك المرآة الكبيرة، حاولت اللَّحاق به فلم تُفلِح، نادته، فلم يُجب وكأنَّه كره عالمها، أو رُبَّما ثمَّة ريحٌ

خطفت البسمة التي على شفاهها! كيف تلحقُ به وعالم المرايا لا يُشبهُ عالمها المليء بالأحزان والآلام؟!

استيقظت على تلك الدَّمعة التي باتت صديقتها في كُلِّ حُلمٍ تراه، ارتشفت من الماء القليل، وعادت تُفكِّر به. لمَ دخل تلك المرآة؟! ولمَ في هذه المرَّة لم يهتمَّ لدمعها الكثيف وكأنَّه لم يكن يُراقصُها هي بل كان يرقص على جراحها؟!

تبَّاً له! كيف له أن يغيب أشهراً ثُمَّ يعود بعدها فيدغدغ مشاعرها ومن ثمَّ يرحل كما جاء؟!

وبدأت تكتب له، ولكن في قلبها صفحاتٌ كثيرةٌ ممَّا فاض به خاطرها، وفي كُلِّ صفحةٍ ذكرى، وفي كُلِّ ذكرى سعادةٌ تُولدُ من جديد، لكنَّ كلماتها مهما حاولت إسعادها تظلُّ مسكونةً بالحزن.

بدأت الكتابة، لكنَّ صوته الحزين كان ينبعث من بين السُّطور ليختبئ تارةً ويناديها تارةً أُخرى. في كُلِّ سطرٍ كانت تسمعه يناديها، وكانت الكلمات قد هربت إلى عالمٍ غريبٍ لا يُشبهُ عالمها، رُبَّما هي التي سافرت إلى عالمه.

ارتجف القلم بين أناملها، فدائماً في القلب حديثٌ أصمُّ لا تُنصفُه الحروف قاطبة، وكُلَّما حاولت أن تكتبَ أُثقِلت كلماتها بصدى الألم، إلى أن استجمعت شجاعتها لتبدأ أخيراً:

"كُنتَ غريباً اليوم يا فارسي، كُنتَ ترقصُ على أوردتي النَّازفة بسعادةٍ وحبور، كُنتَ تُدندِنُ أغنيةً لم أفهمها، رُبَّما كانت من تراث بلادك!

ألم ترَ تلك الدُّموع وهي تُلهِبُ مقلتي؟! لمَ لم تمسحها كعادتك؟! ولمَ لم تضمَّني لأشعرَ بدفء صدرك كما في كُلِّ مرَّة؟!

لعلَّكَ اخترت الرَّحيل والهروب هكذا كما اخترتُه أنا حين رحلت عن مالك؟!

لمَ اخترت تلك المرآة لتعبر منها إلى عالمك؟! لمَ لم تختر العبور إلى عالمي أنا؟!

أستيقظُ فأجدكَ بجواري نائماً.

أتراكَ كُنتَ خائفاً منِّي كي لا أتبعك؟ فأنتَ تعلمُ أنِّي لا أستطيعُ اجتيازها، فأنا من الإنس ولستُ مثلك.

إنِّي لا أعرفُ من تكون!

أمَّا عنكَ فتستطيع اقتحام أحلامي متى تشاء وكيفما تشاء، وحين تُقرِّرُ أن تكون البطل تكون.

أراكَ ترسم أحلامي بمفردكَ، فأكونُ التَّابع لكَ دون أن أدري إلى أين تسحبني، وحين أستيقظُ وأتذكَّرُ أنَّكَ مُجرَّد طيفٍ في حُلم ولا وجود لكَ في واقعي ألعنُ حينها نفسي ألف مرَّةٍ.

إنّي قد وثقتُ بكَ وجعلتُكَ بطلاً أكتب له وعنه في كُلِّ ليلةٍ، وهكذا بدأتُ أعشقُكَ أكثرَ فأكثر.

أنتَ عاشقٌ مُتمرّدٌ ذو كبرياءٍ غريب تزورُني بعد أن تختفي شهوراً عدَّةً وكأنَّكَ على موعدٍ مع فتاةٍ أُخرى، في أحلامها، رُبَّما!

من يدري فارسٌ لكم فتاةٍ أنت؟!

بالله عليكَ كم فتاةٍ اقتحمتَ عالمها وعبثتَ بها كما تشاء!

هل صدَّقنكَ مثلي؟ أم أنا الوحيدةُ السَّاذجةُ التي اخترتُكَ بطلاً لحكاياتي الغبيَّة؟

سأُخبرُكَ سِرَّاً يا صديقي..

مُجرَّدُ التَّفكير بكَ يجعلُني سعيدةً، ويأخذُني إلى عالمٍ آخرَ، عالمٍ من الخيال.

أنتَ الوحيدُ الذي امتلكَ قلبي، فاقتحمتَ حصونه وأذبتَ عنه الجليد.

أنتَ الوحيدُ القادرُ على إنعاشه من جديد، فأرجوكَ لا تُطفئه.

أنتَ وحدكَ من أزاح ستار الظُّلمة عن حياتي، وأدخلَ الأمل إلى قلبي.

عشَّشتَ في فؤادي رافضاً الرَّحيل إلى فؤادٍ آخر، وبرفقتكَ عشتُ أروع الأيَّام التي خلَّدها الزَّمن على صفحاتٍ من الزُّجاج القاسي، فمتى تُضيء واقعي كما أضأتَ أحلامي؟

عشقتُكَ عشق القمر لنجمة الصَّباح، وعشق الأزهار لقطرات النَّدى.
عشقتُكَ عشق المسافر الذي ضلَّ طريقه في البيداء لقطرة ماءٍ تُطفِئُ ظمأه.
سأُحبُّكَ بقدر البسمة التي خلقتَها في حياتي مذ قدومكَ إليَّ.
سأُحبُّكَ بقدر الأحلام التي رأيتُكَ فيها، وبعدد العَبَرَات التي سكبتُها حنيناً إليكَ واشتياقاً.
سأُحبُّكَ بعدد ليالي الأرق التي قضيتُها في ذكراك، وبعدد الأحرف التي باح بها قلبي لقلبك.
سأُحبُّكَ بعدد لمساتكَ الدَّافئة ونظراتكَ المُربكة، سأُحبُّكَ بعدد غياباتكَ وإن طالت.
فأرجوكَ كن واقعيَّاً ولا ترحل دون سببٍ ثُمَّ تجيءُ دون سبب أيضاً، فحينها سأبدو كمن يجلسُ في محطَّة القطار.
سأنتظرُ، وأنتظرُ، وأنتظر.. فلا تجعل حياتي مبنيَّةً على انتظاركَ.
بِتُّ أكره المراوغة كثيراً، وأكره الانتظار أكثر!
كم أتمنَّى أن أعرف اسمكَ ومن أيِّ دولةٍ أنتَ!
ينقصُني الكثيرُ من الأحلام لأعرف من تكون.
في كُلِّ ليلةٍ أتذكَّرُكِ، وأدعو إلى الله أن يكون لقاؤنا قريباً في أرضٍ أختارُها أنا هذه المرَّة.

سأكونُ حينها بطلة رواياتكَ، وسأنتقمُ منكَ أشدَّ الانتقام.
سأجعلُكَ تكتب لي كما أكتب لك..
ألستَ من أقنعني أنَّ الكتابة عشقٌ والعشقَ كتابة؟
هل ستُخلِّدُني حينها بين سطور أقلامك؟".

كانت هذه المرَّة الُأولى التي تكتب بها منى ما فاض به قلمُها، كانت موجوعةً والكتابةُ كانت تعبيراً عن وجعها، فاسترسلت دون أدنى انتباهٍ منها. لقد أرادت في هذه المرَّة أن تُطلِقَ لمشاعرها العنان بعد هجرٍ طال ثمانية أشهر.
والآن أدركت أنَّ الألم الذي سبَّبته لمالكٍ كان فظيعاً، وهي لم تهرب من مالكٍ إلى المرآة، بل هربت إلى أحلامها. أمَّا فارسُها قد هرب إلى المرآة كي لا تتبعه، لكنَّ فارسها هرب إلى نفسه، وغاص فيها عميقاً، ومنى لم تستطع اللَّحاق به، فهي كانت تخشى على نفسها من الانجراف وراء أوهامه.

وقفت أمام مرآة خزانتها، تحسَّستها، فرُبَّما وجدت شيئاً يدلُّها عليه، لكنَّها لم تجد سوى مرآةٍ قاسيةٍ تُظهِرُ صورتها، تأمَّلت وجهها وجسدها طويلاً، ها قد ذبل وجهها عن آخرِ مرَّةٍ نظرت فيها إلى نفسها في المرآة كما نحل جسدها أيضاً.

رُبَّما وصلت الرِّسالة، فهو لم يُرِد لمنى أن تتبعه بل أراد لها اكتشاف ذاتها من جديد، فعمرُها قد تجاوز العشرين وجسدها كأنَّما لإمرأة تجاوزت الثَّمانين!

****

عاد والدُ منى إلى بيته في تلك اللَّيلة الخريفيَّة الباردة بوجهٍ احمرَّ من شدَّة غضبه حتَّى كاد يفتك بكُلِّ ما يراه؛ إذ إنَّه عرف للتوِّ من مصادرَ موثوقةٍ أنَّ لابنته الوحيدة حبيباً يراها وتراه بعيداً عن العيون، ومن تكون تلك المصادر الموثوقة سوى أحمد؟! من له مصلحةٌ بتشويه سمعتها غيره؟! أراد أن تعود إليه مُطأطئة الرَّأس فلا يرغب بها رجلٌ سواه! ما كان منه إلَّا أن أشاع قصَّة حُبِّها على الملأ فاضحاً إيَّاها مُعتزَّاً بما فعله، وقد كان على علمٍ بما سيفعله والدها حيال ذلك، فحتماً سيُعيدُها إليه عنوةً وسيُدخلُها سجنه مُجدَّداً، وسيُكبِّلُها بقيودٍ من حديد.

فتَّش والدها غرفتها بمرأى منها ومن والدتها التي حاولت تهدأته دون جدوى؛ إذ كان الشَّرر يتطاير من عينيه وهو يُفتِّشُ ويُفتِّش عن شيء يُدينُها به. لقد تضرَّعت إلى الله ألَّا يعثرَ على دفترها، ففيه إدانتها وسيقتلها إذا ما وجده دون رحمة. وللأصف لم

تُكمِل ابتهالاتها إلَّا والدَّفتر بين يديه، بدأ يتصفَّحه، وصبَّ جام غضبه على الدَّفتر ومزَّقه إرباً. كاد أن يذبحَها، لولا زوجته التي أخرجته من الغرفة لتهدأته، فاكتفى بنعتها بأبشع الألفاظ.

ها هي الآن بنظره كما كان يخشى، جلبت له العار، وأصبحت سيرتها على الملأ، كما صارت قصَّتها حديثاً للتَّداول بين الجارة فلانة والجارة علَّانة، وكأنَّها الوحيدة المتواجدة على كوكب الأرض.

وهي لم تستوعب من كلامه سوى ما قاله في النِّهاية:

- الخميس هو يوم عرسها على أحمد من جديد.

في تلك اللَّحظة استوعبت ما يجري في غرفتها من هجومٍ للمغول عليها، فقد أحالوا الغرفة دماراً شاملاً.

غادر والدُها الغرفة بعد أن قلبها رأساً على عقب، فجلست لتستوعب ما جرى وفتات دفترها بين يديها. لقد قضى على آخر ما يجمعُها به وهي الرَّسائل التي كتبتها بدموعها المُظلمة المُنسكبة على الأرض. لقد اغتال فارسها الذي أحيته في ذاك الدَّفتر، واغتال حُلمها الذي كتبته. قلمُها الذي كان ينزف بين يديها ما علاقته بحربه الغاضبة ليكسره؟! لقد كسر آخر خيطٍ للحُبِّ عندها، ودمَّر حُلمها الوحيد في الحصول على حُرِّيَّتها.

لم تكن تدري بأنَّ النِّهاية ستكون أليمةً وتجرُّها إلى عوالمَ لا شيء فيها سوى الآهات، حيثُ وخزات الألم تُصِرُّ على اختراق فؤادها الجريح لتعبثَ به كيفما تشاء.

ما بال هذه الفتاة تنتهي دوماً حيث تبدأ؟! وما أحلامُها سوى قطعٍ من الزُّجاج رسمها خيالُها العابثُ على ثرى المستحيل.

لقد صفعَها والدُها صفعةً قاسيةً حين نعتَها بأبشعِ الألفاظ، فلمَ؟ لأجل حُبٍّ لم يُولد بالأصل، لأجل حُبٍّ وُلد وترعرع ودُفن في الأحلام! تركها تستحمُّ بعَبَرَاتٍ أثقلَها الزَّمنُ على كاهلها المُتعب.

ولكن هل سيُهزَمُ الحُبُّ والهيام في ذاتها؟ لا، إطلاقاً، فقد كان حُبُّها أقوى من أن يذهب أدراج الرِّياح الباردة.

****

جلست على السَّرير الذي افتقدته منذُ أشهرٍ. نعم، استطاعت الهرب من والدها لتعود مُجدَّداً إلى أُختها هبة رافضةً كُلَّ الرَّفض العودة إلى السِّجن ذاته. جراحُها لم تشفَ بعد من تلك الجنازة التي شيَّعوها بها على إيقاع الأغاني الهابطة، وهي لم تنسَ أبداً نظراته الوقحة إلى كُلِّ جسدٍ يتمايل أمامه. في ذلك المأتم الذي ضمَّهما سويَّةً

ليُعلنهما زوجين، هو وُلِدَ من جديدٍ بعد الحفل، وهي دُفنت وجسدُها بقي لا يفقهُ ما يحدث.

صرخت منى في وجه أُختها باكية:

- جلبتُ العار لعائلتي دون قصدٍ منّي، كانت المرَّة الأُولى التي بها تشجَّعتُ ورغبتُ في المزيد من الحُبّ. نعم، أحببته، ولا أُنكِرُ ذلك. أحببتُ ذلك الطَّيف حُبَّاً لذيذاً، فارتضيتُ تلك الصَّفعة ثمناً لحُبٍّ أبى أن يأتيني واقعاً، على حُبٍّ اختبأ في زاوية المرايا وفي أحلامٍ عابرة. أردتُ أن أعيش لأشعر بأنّي مازلتُ أُنثى تملكُ الحقُّ في الحُبِّ، أردتُ أن أكتب عنه أكثرَ فأكثر، أن أكتب عن حُبٍّ استعمر خلاياي. هو طلب ذلك، قالها لي اكتبي لي وعنّي كي تعشقيني.

سكتت، شهقت، بكت، صرخت، ذرفت المزيد من العَبَرَات وكتمت آخر صيحةٍ لها من وجع.

أيُمكِنُ بعد كُلِّ تلك الأحلام أن تعودَ إلى أحمدَ وكأنَّها لم تهرب منه في يومٍ من الأيَّام؟! لمَ افترقت عنه إذن؟ هل لتعود إليه بذلٍّ أكبر من ذلك الذُّلّ؟! في هذه المرَّة لن تستطيع رفع رأسها في وجهه.

ابتسمت لها هبة لتُخفِّفَ عنها قليلاً ولو أنَّ جراحها لن تُوجِعَ أحداً غيرها، ثُمَّ عادت إلى غرفتها ومعها دفترٌ وقلم قائلةً لها:

- اكتبي ما فاض به قلبُكِ، فلن ينزعه من فؤادِكِ أحد، ولن يُرغمَكِ أحدٌ على شيءٍ لا ترغبين به.

وأغلقت الباب خلفها تاركةً منى في مأساةٍ يصعبُ فهمُها، فقد بكت الحُبَّ دون حبيب، ولرُبَّما حاجتُها إلى حبيبٍ دفعتها إلى الانهيار هكذا.

كانت تُدافعُ عن حُبٍّ غير مرئيٍّ، حُبٍّ وُلد في أحلامها وحسب، بينما قناعاتُها كانت أكبر من ذلك، فهي من أوجدته حين بدأت الكتابة، وقلمُها هو الذي أحياه بين سطور صفحاتها. كانت تستمع إلى أحاديثه، وكان يُغازلُها، يُناجيها، يمسح دموعها تارةً ويبكي لأجلها تارة. حُبٌّ كهذا كيف له أن يخبوَ دون أن يُضيء.

وبدأت تكتب له وكأنَّها مُتعطِّشةٌ للقائه:

"أعتذرُ لأنَّ والدي فتك بحُبّكَ قبل أن ينمو.

لا، لن يفتكَ به، فحُبُّكَ سيبقى إلى أبد الآبدين في قلبي.

قل لي يا فارسي: من أنتَ حتَّى أُدافعَ عنكَ بكُلِّ تلك الجرأة؟

كُنتُ سأصرخُ في وجه والدي ألَّا يقتلَكَ، لكنَّه كان يتفنَّنُ في تمزيقكَ كما تتفنَّنُ أنتَ في الهروب منِّي.

لقد رآكَ في دفتري الصَّغير، رآكَ وعيناكَ تُغازِلان عينيَّ، رآني وأنا بين ذراعيكَ نائمة.

لقد لمح الحُبَّ في عينيكَ السَّوداوين، وليته مزَّق قلبي حين مزَّق حُبَّك!

سيعثرُ عليكَ حينها وأنتَ مُخبَّأٌ في زاويةٍ من زوايا قلبي، وسأتوسَّلُ إليه أن يدعَ حُبَّك يُغذِّي شرايين قلبي.

أَتدري يا أميري ما سيفعله والدي إذا ما علم بأمر مجيئك إلى مخدعي ليلاً؟

سيمنعُني من النَّوم، وسيسهر هو على ذلك. سيُجنِّدُ أُمِّي لخدمته، فهو يكره هذه الكلمة ويخافُ منها، وإلى الآن لم أسمعه يتلفَّظُ بها.

وقفتُ أمامه وحيدةً في مواجهة تيَّار جارف، ولم أسمع نوبات غضبه التي كادت تلتهمُني.

كانت الخزانة ورائي، أَتدري لمَ؟

لا تستعجل الإجابة.

سأُخبرُكَ يا فارسي أنِّي كُنتُ أخشى عليكَ منه، فهو سيُحطِّمُ المرآة حتماً إلى أشلاءَ إن رآك فيها، وستنزفُ مرآتي دماً حين أُحاوِلُ لملمة جراحها النَّازفة، وستكون جراحُكَ هي التي تنزفُ عوضاً عن تلك المرآة القاسية. في داخلها كُنتُ أُخبِّئُ أسراري، فهي الشَّاهدة على قصَّة هروبكَ منِّي في تلك اللَّيلة.

حمدتُ الله؛ لأنَّ أبي لم يفعلها، وإلَّا لكان قضى على آخر خيطٍ يصل بيننا.

أَتراكَ يا سيدي لستَ بإسرائيل وأنا لستُ بفلسطين؟

أنتَ كيانٌ قد احتلَّ بجدارة قلبي، وأنا الأرضُ الطَّيِّبة التي يُعجبُها هكذا احتلال.

اطمئِّن يا سيدي، لن أتحرَّر من قيودك، ولن أُطالبَك بالحرِّيَّة، فحُريَّتي هي امتدادٌ لاحتلالك.

وسأهتفُ في كُلِّ المسيرات بتمديد الاحتلال، وسأتزعَّمُ المظاهرات، وسأصرخُ بأعلى صوتي أن يدومَ احتلالُك لقلبي.

لمَ لا تأتي اليومَ لتُخبرَني كم اشتقتَ إليَّ هكذا بلا مُقدِّمات؟

لمَ لا تكونُ ولو لمرَّةٍ واحدةٍ البادئَ قبل أن أكتب لكَ في اليوم آلاف المرَّات؟

إنِّي أنظرُ إلى السَّاعة مراراً وكأنَّ مجيئكَ مقترنٌ بها هي لا بك!

تلك السَّاعةُ قد سئمت نظراتي إليها، قد كرهت نظراتي المُتفحِّصة إليها في كُلِّ حين.

أتعلمُ يا فارسي ما هو العجز؟

إنَّما هو أن أشكوَ منكَ وأكتبَ لكَ وعليك!

العجزُ هو أن أبكيَ في كُلِّ ليلةٍ شوقاً للقياكَ ولو في حُلمٍ قصير المدى، وليس في واقعٍ يغدو أجملَ حين تزوره أنت.

ها هو ذا العجزُ يا سيِّدي، أن أشتاقكَ، وبدلاً من لقاءٍ يجمعُنا أكتب لتجمعَنا سطورٌ عدَّة، فليست بيدي حيلةٌ سوى أن أكتب إلى أن ينفدَ حبري أو تنطفِئَ روحي.

في أحلامي أنتَ خيالٌ مُمتدٌّ إلى ما لانهاية، كامرأةٍ عجوزٍ مات عشيقُها منذُ مراهقتها فعاشت وحيدةً تنتظرُ الموت سبعين عاماً لتلتقيه مُجدَّداً. ستأتي، أعلم ذلك، ولكن لا أعرف متى! تغيبُ كُلَّما شئتَ وترحلُ حينما تشاء، بإرادتكَ أنتَ تغيبُ وتعودُ متى ما يحلو لك!

هل ستعود لتعتذرَ عن خذلانكَ المُتكرّر لي؟ كلماتُكَ، ابتسامتكَ، أحضانُكَ، كُلُّها اتَّفقت على خذلاني معك، وهكذا كثرت الخيباتُ منكَ وحدك! هل ستأتي لتُخبرَني بأنَّكَ تأسفُ لما حلَّ بي جرَّاء حُبِّك؟ هل سترجوني أن أصبرَ على حياةٍ جديدةٍ ستبدأ من غدٍ؟ ستكونُ الأيَّامُ قاسيةً دونك، فما ذنبي إن كان قلبي قد تعلَّق بكَ كثيراً، لقد تعلَّقتُ بكَ حتَّى نسيتُ أنَّكَ طيفٌ ولا وجود لكَ في أرض الواقع. لم أعد أُريدُ لنفسي الهلاك من فراقٍ مُحتَّمٍ تختاره بيدك.

أنـتَ ملـكُ الأحـاجي يـا سـيّدي، ووحـدكَ مـن يحـقُّ لـكَ الحضـور والغياب.

أنـتَ فقـط مـن يحـقُّ لـه العشـقُ والغـزلُ والحُـبُّ والملمـسُ النَّـاعم والأحضانُ الدَّافئة، أنتَ وحدكَ.

وأنـا لا يحـقُّ لـي شـيءٌ سوى الانتظـار كسـاعةٍ مُهملـةٍ علـى الجدار تُراقبُهـا عينـا فتـاةٍ بشـغفٍ، تنتظرُ وصـول أميرهـا مـن حـربٍ ضـاريةٍ غدت النَّجـاةُ منهـا أشبه بالمستحيل، فكلانـا لـم نُخلـق للحُـبِّ، خُلقنـا للانتظار!

نسيتُ إخبـاركَ بعودتي إلـى غرفتـي التـي شـهدت أُولـى أحلامنـا هنـا، وعلـى هـذا السَّـرير كـم تمنَّيـتُ لقيـاك! لـم أعـد إلـى هنـا لأنَّ نفسـي اشتاقت إليك، بل هرباً من والد سيُشيّعُ جثمـاني مُجدَّداً، فهربت إلـى من هربت منه نفسي مُسبقاً.

سامحني إن لم أكن لكَ يوماً..

ستكون في أحلامي بلا شكَّ".

أسرفت منـى فـي مشـاعرها كثيراً، وأفرغت مـا فـي جعبتهـا مـن حنينٍ ممزوجٍ بـالألم، وهـا هـي تضـع الدَّفتر فـي درج الطَّاولـة بحـذر وتُحكِمُ الإغلاق خوفاً عليه من إبـادةٍ ثانيـة، ثُمَّ توجَّهت إلـى سريرها

لتنعمَ بنومٍ كانت تحسبه هانئاً، ولكن هيهات! فالخوفُ من القادم مازال يعتريها، والحنينُ إلى المجهول مازال يجتاحها.

كانت تُدرِكُ أنَّ والدها الآن يستشيطُ غضباً، ولكن ما ذنبها إن كان هو من دفعها إلى ذلك؟ هي تُدرِكُ أنَّه لا يستطيع القدوم إلى هنا لا سيَّما وأنَّه على غير وفاقٍ مع مصطفى زوج هبة، فهو يُكِنُّ له الحقد الدَّفين، فابنته قد أفلتت من يده دون عقود الصَّفقات التي وسم نفسه بها. هبة بخلاف أُختها رفضت أن تكون للبيع. وهكذا رفض والدها هذه الزِّيجة ممَّا استدعى تدخُّل أعمامها الذين زوَّجوها دون موافقة والدها، وحين علم بخروج ابنته عن إرادته لم يستطع فعل شيءٍ سوى الكره الشَّديد لزوج ابنته.

وهو إن كان قد أتى في المرَّة الماضية فلأنَّه أحسَّ بخروج الأمر من يده، وها هو سيخرجُ مرَّةً أُخرى إن بقيت منى على عنادها هنا، ولكن ها هي منى تحذو حذوَ أُختها هبة وترفضُ أن تكونَ سلعةً تُباعُ وتُشترى. هي فتاةٌ من زجاجٍ، يسهل كسرُها، رقيقةٌ في كُلِّ شيءٍ، ومثالٌ للطِّيبة والنُّعومة. لم ترد شيئاً سوى تركها تنعمُ بالسَّلام، فراحت تبحث بين رفوف الكتب عن حُبٍّ طاهرٍ لا يُلوِّثُها، تبحث في أحلامها عن فارسٍ بلا جواد يقتحم حياتها صدفةً على رصيف الصُّدفة الواقعيَّة.

هو ذكيٌّ جدًّاً، استطاع أن يأسرَ قلبها دون أن يتنازل عن كبريائه، استطاع أن يتركها في حالة ضياعٍ تامٍّ، أرادها حُبًّاً لا متناهياً، ومع ذلك هجرها لأشهرٍ قبل أن يُفكِّرَ بالعودة. لم يتركها تعيش حياتها كما أحبَّت، ولم يأتها لتعيش الحياة حياتين بوجوده معها.

****

اتَّصلت بها صديقتها بعد شهرٍ من عودتها إلى منزل هبة لتخبرَها بفرصة عملٍ مناسبةٍ لها في شركةٍ تجاريَّةٍ تُناسبُ مُؤهِّلاتها. سُرَّت بذلك منى، فهي ستقتل الملل من جديدٍ، وستتناسى فارسها مُؤقَّتاً وستعيش بسلامٍ مدَّةً لا بأس بها ريثما يُطِلُّ عليها من جديدٍ في حُلمٍ قصير.

دوَّنت عنوان الشَّركة على ورقةٍ صغيرةٍ بيضاءَ، ووضعتها على الطَّاولة قربها، واستعدَّت للنَّوم وأمامها تُطِلُّ صورته التي رسمتها من جديد حتَّى استطاعت حفظ تقاطيع وجهه.

وفي صباح يومها التالي جهَّزت نفسها جيداً، وتضرَّعت إلى الله مراراً ألَّا تُقابلَها أيُّ عراقيل تُواجهُها في هذه الشَّركة المجهولة.

قرَّرت أن تخطوَ خطوةً في سبيل سعادتها دون أن يعرفَ أحدٌ

أخبارها الجديدة، فهي قد تكون سعادةً مؤقَّتة، وهي تُدركُ ذلك، لكنَّها بأمسِّ الحاجة إليها.

خرجت مسرعةً لتلحق بموعدِ عملها الجديد، فقد أعطتها صديقتُها موعداً للمقابلة وعليها ألَّا تتأخَّر عليه. أنَّى لها أن تحصل على عملٍ جديدٍ إذا فاتها هذا الموعد.

دلفت إلى بهو الشَّركة، فوجدتها مؤلَّفةً من أربعة طوابقَ، ومن الرُّخام الأبيض كانت مبنيَّة. كانت كبيرةً جدَّاً، وفيها آلاف المُوظَّفين يعملون.

استقبلتها مُوظَّفة الاستقبال بابتسامةٍ جذَّابةٍ تزيَّنت بها، وحين أخبرتها منى بموعد مقابلتها أجلستها الموظَّفة في غرفة الاستقبال إلى أن دقَّت السَّاعة الثَّانية عشرة معلنةً أنَّ موعدها قد حان، وفجأةً تأجَّل موعدها لدقائقَ أُخرَ ليست بالكثيرة، لتخرجَ من الغرفة المجاورة فتاةٌ شقراءُ وتناديَ باسمها، فتتقدَّم منى بكُلِّ ثقةٍ وبقليلٍ من الارتباك وتتبع الموظَّفة وتدخل إلى مكتب مدير الموارد البشريَّة.

دخلت إليه وحيَّته بإيماءةٍ من رأسها، كانت خجلةً ومُرتبكةً بعض الشَّيء. جلست قُبالته، فراح يسألُها وهي تجيب، تطرَّق إلى مختلف جوانب حياتها الاجتماعيَّة والتَّعليميَّة دون التَّطرُّق إلى مواضيعها

الخاصَّة ممَّا أثلج قلبها وبعث في نفسها الراحة، فاسترسلت معه ناسيةً ارتباكها وخجلها.

لقد نجحت في الاختبار واستطاعت أن تقلبَ الكفَّة لصالحها حين نادى الموظَّفة الشَّقراء ذاتها التي أدخلتها إلى مكتبه لتأخذها إلى مكتبها وتُعلِّمها طبيعة عملها الجديد. رحَّبت الموظَّفة بمنى وكأنَّها تعرفُها ردحاً من الزَّمن، وبدأت تُعلِّمها ما ينبغي لها أن تتعلَّمه، ولطبيعة منى الذَّكيَّة بدأت تكتسب المهارات بسرعةٍ فائقة.

فرحت منى بعملها الجديد الذي كان قريباً من عملها السَّابق في الفندق، فهي لن تُضطرَّ للخنوع لوالدها من جديد، ولن تُفكِّر وهي تعمل هذا العمل الشَّاق بفارسها وهجرانه غير المُبرِّر، كما أنَّ أحمدَ لن يجدها ولن يُلاحقَها، وهكذا لن تكون له أبداً، ومالكٌ أيضاً لن يجدها ها هنا، فهي إلى الآن لم تسمح لنفسها أن تسامحَ قلبها على ما فعله بها من آلام.

****

عادت إلى بيت أختها سعيدةً بعملها الجديد، واستطاعت أن تعمل بجدٍّ لتنسى تعب قلبها قليلاً ولترتاحَ من عبث الحياة الصَّاخبة.

جلست مع هبة أمام طاولة الطَّعام وراحت تتحدَّثُ معها عن عملها الجديد. كانت سعادتها ظاهرةً على خدَّيها، فقصَّت عليها ما حدث منذُ دخولها تلك الشَّركة الضَّخمة إلى أن خرجت من المبنى العملاق بتفاصيلَ مُفصَّلةٍ جعلتها تبدو وكأنَّها كانت معها ولم يغب عنها شيء.

لم تكن تدري من أين استمدَّت سعادتها الكبيرة، فقلبها لم يُخطئ في حدسه يوماً وكأنَّ فارسها قاب قوسين أو أدنى منها.

دخلت غرفتها وقفزت على سريرها بخفَّةٍ ونشاط، وتذكَّرته في آخر لقاءٍ جمعهما سويَّةً. لم تستطع نسيانه، فالأمرُ قد خرج عن إرادتها، وهي محتاجةٌ إلى دفء أحضانه في أوقاتٍ كهذه، تحتاجُ عباراتٍ تشجيعيَّةٍ تخرج منه، فكيف السَّبيلُ إلى لقياه وهو العاشقُ الهاجر؟!

أخرجت دفترها بعد أن أفرجت عنه، وضمَّته إلى حضنها لتشعرَ بدفء كلماتها عن فارسها وكأنَّه بين أحضانها. قبَّلت الدَّفتر ثلاثاً، ثُمَّ فتحته لتكتب له وعنه وبه:

"اشتقت إليكَ يا فارسي ويا أميري.

في كُلِّ مرَّةٍ أحتاجُ مُسمَّياتٍ جديدةٍ لكَ، فحتَّى الآن لم أستقرَّ على اسمٍ أُناديكَ به، فكن فارسي إلى حين أعثر لكَ على اسمٍ جديد.

وكُلّي شوقٌ لمعرفة اسمكَ أيُّها الأسمرُ، يا من تسكنُه ملامحُ العربيّ الأصيل.

أَتدري كميَّة الشَّوق التي زرعتَها في وريدي مذ رحلتَ عنّي آخرَ مرَّةٍ؟ إنّي إلى الآن مُتيَّمةٌ بكَ أكثرَ من ذي قبل، وكُلّي حنينٌ لاحتضانك، لألمسَ وجهكَ بيديَّ الباردتين، فتطبعَ قبلةً رقيقةً عليهما، وتحمرَّ وجنتاي خجلاً، ثُمَّ أطبع بدوري قبلةً على خدّكَ الأيمن وأهرب خجلةً قبل أن تفيقَ من صدمتك.

أُريدُ أن أحيا بكَ ولك، فهل هذا مستحيل؟

أَردتُكَ لي حبيباً واقعيَّاً لا يختفي مع نفاد حبري، لذا بدأتُ بالكتابة كي تحيا في قلبي وتكبرَ بين سطور دفتري.

حين قرأتُ طوق الياسمين البارحة، كتابٌ لواسيني الأعرج، لمحَ ذهني عبارةً ذكَّرتني بكَ: (الكتابة التي لا تُدخلُنا غمار الحُلم ليست كتابة). لكأنَّه يتحدَّث عن حُلمنا سويَّةً، فمتى تُحقِّق الحُلم لأكون بطلتك.

أرغبُ بالغوص إلى قاع الحُلم لعلّي أجدُك، أكتب عنكَ صفحاتٍ لا تمتلئُ بأقلامٍ لا تنطفئ، وكُلَّما نفد حبر قلمي أُسرعُ لأحضر المزيد، فما ذنبي أنا إن كان حبيبي لا ينضب؟

هل تراكَ أعجبتكَ العيشة بين السُّطور؟ أم استهوتكَ لعبة الغميضة وأنت تختبئ بين سطر وآخر، ومن كلمة إلى أُخرى؟ أراكَ تعيش على بقايا حبري رافضاً الظُّهور لتراكَ عيناي، ولكنِّي أراكَ يا حبيبي في كُلِّ سطرٍ أكتبُهُ أراكَ كما لو كُنتَ في حلمي الشَّهيّ. في كُلِّ كلمةٍ أكتبُها أراكَ، فلا تلعب معي مثل هذه الألعاب مرَّةً أُخرى؛ لأنِّي سأشعر برائحتكَ في كُلِّ حين.

ألن تأتي ثانيةً فأراكَ وأحضنك؟ لقد تعب قلمي من البوح بالحنين إليك.

عُدْ يا سيدي، أنا أرجوك، وباستطاعتكَ الهروبُ إلى المرآة متى شئت، وهنا تُوجدُ أيضاً مرآةٌ كبيرةٌ، وهي ليست بكبر تلك المرآة، إنَّها أصغر بعض الشَّيء، ولكن باستطاعتكَ أن تدخلَ منها إن أخفضتَ رأسك قليلاً".

انتهت منى من الكتابة ودمعةٌ يتيمةٌ قد استقرَّت على خدِّها دون أن تعرف السَّبيل، مسحتها بلؤمٍ وكأنَّها ترفضُها وترفض انسكابها في لحظاتٍ تمنَّت لو كانت فيها قويَّة، ولكن سرعان ما عادت تلك الدمعة لتخونها من جديد.

غفت وهي مازالت تُحدِّقُ بالسَّقف الرَّماديّ ويدُها تلعب بضفيرتها المدلاة على صدرها بينما يدها الأُخرى تحت رأسها، فتراءت لها صورته مرسومةً بعنايةٍ في السقف.

****

هناك حيث كانت تنتظره عند شجرة الحُبِّ وسنابل العشق، عند زهور اللِّقاء وياسمين البعاد. هناك حيث اختار أن يكون موعدهما وحيث بدأا الحُبَّ في الأحلام.

في عينيه رأت تفاصيلَ الحكاية، وبوجهٍ شاحبٍ عاد إليها توَّاقاً إلى ضمِّها والبكاء كما الأطفال على صدرها، كفارٍّ أوشك على الهزيمة في المعركة قد عاد، وأشبه بجنديٍّ جريحٍ يجرُّ أذيال الخيبة خلفه.

نظر إليها مرَّةً أُخرى كطفلٍ توَّاقٍ لحضن أُمِّه الدَّافئ، نظر إلى عينيها العسليَّتين وكأنَّهما نهرٌ من عسلٍ لا مدَّ له وهو الذي ينهارُ ظمأً، بكى كما لم يبكِ من قبل، وأمسك بكلتا يديه يدها الدَّافئة لعلَّها تسامحه.

على الأرض جلست أمامه لتمسحَ عينيه السَّوداوين المُشعَّتين كظلام اللَّيل، لتمسحَ عَبَرَاته السَّخيَّة بيديها الباردتين، فما كان منه إلَّا أن خبَّأ وجهه كغزالٍ باحثٍ عن مأوى هرباً من ذئاب الحياة،

وكطفلٍ يتيمٍ وجد أُمَّه فجأةً في حُلمٍ مجهول، وكفراشةٍ احتمت في وردةٍ لتهربَ من عبث الحياة. نام وهي مازالت تربتُ على شعره، نام وهو في أحضانها مُمسكاً بتلابيب فستانها، ممسكاً بها بقوَّة، فكان خائفاً من الحياة خلف أسوار حُبِّها.

استيقظت وثلوج يناير تضرب نافذتها بقسوة، كانت الثُّلوجُ تُغطِّي مساحاتٍ ليست بالقليلة، وكان البردُ على أشدِّه حين وقفت أمام نافذتها فتراءت لها دمشقُ بفستانها الأبيض كعروسٍ في ليلة زفافها، وقد زادها الثَّلج النَّاصع جمالاً إثرَ جمال.

مرَّ شريط حلمها مصوَّراً أمامها بتفاصيله الحزينة وكأنَّه يُعادُ من جديد، فكانت كلماته كشعرٍ شفَّاف يطفو على سطح الماء. رجاها أن تسامحَه وهي لم تدرِ لمَ؟ رُبَّما بسبب هجرانه المُتكرِّر. في هذه المرَّة غاص فيها كثيراً، وهي كذلك، لكنَّها مع ذلك لم تُحاوِل فهم كُنهه، وإلى الآن لم تفكَّ طلاسيمَ أُحجيته رغم أنَّها لمحت الحزن في عينيه والدَّموع أيضاً. رُبَّما كانت أيضاً دواءً لجراحه كما كان بلسماً لجراحها.

لمَ اختارها من بين نساء الأرض قاطبةً كي يأويَ إليها؟ اختارها هي فقط ليبكي في أحضانها، وهي استطاعت أن تسمعَ ضجيج صمته، فبكاؤه كان مريراً، وهي قد أصغت إليه جيّداً،

فسمعت أوجاعه الصَّاخبة، وصمته رُبَّما كان بدايةً لحكايةٍ جديدة، ومعاني البوح جميعُها قد تكسَّرت في صمته، وآلامه هي التي تكلَّمت في هذه المرَّة.

وكان هذا آخر حُلمٍ لمنى معه وآخرَ لقاء جمعهما في الأحلام سويَّةً.

ثُمَّ عادت تكتب له فشعرت به أكثرَ من ذي قبل:

"أخبرني يا فارسي: ما الذي أبكاك؟

حدِّثني عن أحلامكَ وحكاياتك، وعن أحزانك وأوجاعك وعذاباتك.

حدِّثني عمَّا تبحث في الأحلام؟ وإلى أيِّ حدٍ تتألَّم وتتعذَّب؟

إلى أيِّ حدٍّ أنتَ خائفٌ ومرتاع؟ وإلى أيِّ حدٍّ أنتَ يائسٌ من الحياة؟

كانت أحزانكَ بالنِّسبة إليَّ مُتعبةً جدَّاً، وأنا لم أعتد رؤيتك هكذا.

أنا التي كُنتُ بكَ أعتزُّ، أراكَ رجلاً قاسياً لا تهزمه قسوة المرآة، فكيف لكَ أن تبكي في حضن امرأة؟!

سيجدُ كلانا الآخر بلا شكّ.

لا أدري من أين استوحيت ثقتي هذه، لكنِّي على يقين بذلك، ورُبَّما قد يختلف الزَّمان والمكان، ولكن في بقعةٍ ما على هذه الأرض سيرى كلانا الآخر يوماً ما.

أتمنَّى حينها ألَّا أراكَ بصحبة غيري، وألَّا تراني بصحبة غيرك.

سيبقى فؤادي لكَ مفتوحاً ولن يُغلق، وسأكونُ جاريتكَ إن رغبت، ولن يهمَّني حينها إن صرختُ بأنّي أهواكَ.. يا من عشقتكَ في أحلامي على مدى سنواتٍ ثلاث، وفي كُلِّ لحظةٍ تمرُّ عليَّ أتمنَّى أن تكونَ واقعاً، فأبكي على صدركَ أيَّاماً بعدد الأيَّام التي رأيتُكَ فيها في أحلامي.

سأظلُّ أكتبُ لكَ حتَّى أراكَ في حُلمٍ عابرٍ مرَّةً أُخرى، وحينها سأجعلُ ليلتي سنين لكي لا ترحل كما في كُلِّ مرَّة، أو رُبَّما سأتحوَّلُ مثلكَ إلى طيفٍ أو جانٍّ أو ملاكٍ لأحضرَ معكَ وأغيبَ معك.

أَعدُكَ حينها أنّي سأُحوّلُ اللَّيلة إلى ليالٍ، ولن أجعلَ اللَّيلة اثني عشرة ساعة، لأجلكَ سأجعلها اثني عشر شهراً، لأبقى بجوار سواد عينيكَ المُلتهبتين كالفحم المُتَّقد، وبجوار يديكَ الدَّافئتين ومع تلك الابتسامة السِّحريَّة الشَّبيهة بابتسامة هوليود، حتَّى أحضانكَ وقبلاتكَ وعَبَرَاتكَ كُلَّها قد اشتقتُ إليها، وأتمنَّاها واقعاً، فلا تسمح لمرآةٍ وبعضٍ من أحلامٍ أن تفصلَ بيننا يا عزيزي".

وبدأت بالنَّحيب عند كتابة آخرِ سطرٍ لتُعلنَ لنفسها أنَّها مازالت هشَّةً من الدَّاخل ويسهلَ كسرُها بمباركة طيف. مرَّت أيَّامٌ وهي تمنع تلك العَبَرَات من الانسكاب، ولكن، ماذا بعد؟ إلى أين؟

كيف ستكون النِّهاية؟ لا شيء يُبشِّرُ بالخير، لا شيء جديدٌ يلوح في الأُفق.

كانت أُنثى حسَّاسةً مليئةً بالمشاعر المُرهفة، تقتلها كلمات الشَّوق والحنين، تقتلها الغرفة الموحشة واللَّيالي الباردة، يقتلها شتاءُ يناير، وكُلُّ ما في الكون اتَّفق على خذلانها.

ما ذنبها إن كان شتاءُ يناير يبعث في قلبها الحنين؟ فتغدو كطائرٍ في الأُفق يطير ويبحث عن مكانٍ دافئٍ ليُعشِّش فيه.

علَّقت جُلَّ آمالها عليه، وباتت تنتظره أكثر من ذي قبل وكأنَّه ضرب لها موعداً قريباً، ولكن هيهات أن يأتي، فهو يعشق الهروب كثيراً، ويتفنَّن في الهجر.

وفي كُلِّ ليلةٍ إن لم يأتِ إليها تستيقظ لترثي الحُبَّ ثُمَّ تنام وعيناها كالجمر الملتهب. تناست بأنَّه وهمٌ زائلٌ، وهي مهما بكت لأجله لن يُطِّلَ ليحضنها، فأنَّى لطيفٍ أن يشعرَ بحزنها! أضحت حروفُها التي تكتبها له مسكونةً بألمٍ فظيعٍ ومن بين حزنها يُطِلُّ بحزنه.

في الشَّركة الأمرُ مُختلف، تراها تطلب قهوتها التي تُحبُّها بلا سُكَّر كعادتها وترتشفها بهدوءٍ على أنغام فيروز وحنينها الصَّباحيّ. كانت تعمل بجدٍّ ونشاطٍ مُتناسيةً ما حلَّ بقلبها من آلام، وتدخل إلى مكتب مديرها لتُناقشه في أمورٍ شتَّى، ثُمَّ يتبادلان الأوراق قبل أن تعود

إلى مكتبها ومعها مستنداتٌ جديدةٌ وجب أن تعمل عليها، وهكذا لم يكن ليتسنَّى لها وقت فراغٍ لتُفكِّرَ بالحُبِّ الذي ولَّاها.

حياتُها تقضيها بين الشَّركة والبيت، ففي الشَّركة عملُها على الحاسب، وهو لا ينتهي، بل يستمرُّ سبع ساعاتٍ وهي مُنكبَّةٌ على عملها لا ترفع رأسها سوى لترتشف فنجان قهوتها أو لتأكل وجبتها من مقهى الشَّركة، ثُمَّ تُعاودُ الرُّوتين ذاته في كُلِّ يوم.

ومع ذلك استطاعت تكوين بعض الصَّداقات مع زميلاتها في الشَّركة، وصارت تأوي إليهنَّ في أوقات الاستراحة أو حين لا يكون لديها عملٌ مُكثَّف.

لقد تناست وهي في غمرة هذه الأجواء فارسها المحبوب لتعيش حياتها كما الأُخريات، ولتنعمَ بحياةٍ هادئةٍ وديعةٍ كان عليها فعل ذلك، وإلَّا لهلكت قبل أن تراه، فعلت ذلك لكيلا تخسر حياتها أيضاً وهي على حافَّة الانتظار. قرَّرت ترك قضيَّتها للقدر فرُبَّما جاءها من تريده صدفةً، ورُبَّ صدفةٍ خيرٌ من ألف ميعاد، وحتَّى حينه ستظلُّ سعيدةً في حياتها، وإن كانت هذه السَّعادة مؤقَّتةً فمنى أحوجُ إليها من غيرها.

أمَّا في البيت فكانت لمنى حياةٌ ثانية تنتظرها، هناك سجنها البارد الصَّغير الذي كان يستمدُّ الدِّفء منها حين تدخله وكأنَّه هو من يحتاجها وليس الأمر بخلاف ذلك.

هذه الغرفة الباردة ذات السَّرير الواحد والسُّجَّادة القديمة والخزانة الخشبيَّة وحيث تلك الطَّاولة وتلك المرآة الغليظة المستندة بقدمٍ واحدةٍ إلى الجدار، كُلُّ تلك الأشياء تُذكِّرُ منى بموعدها مع فارسها المُبجَّل الذي سيأتيها بلا موعد.

ولطالما وقفت أمام مرآتها ذات القدم الواحدة تتأمَّل نحول جسدها وشحوب وجهها وتلك الهالات السَّوداء القبيحة تحت عينيها، وبعد تأمُّلاتها تلك كانت تترك منى القديمة في المرآة لتظهر بشخصيَّةٍ أُخرى أكثر اكتئاباً، وتبدأ الكتابة له كعادتها اليوميَّة، فتبكيه في كُلِّ صفحة، وتنتحب عقب نهاية كُلِّ سطر، وتصرخ عندما تذكر اسمه، وتُخرج ما في قلبها من مشاعرَ مُخزَّنةٍ جيَّاشة، وتنام على ظهرها وعيناها متشبّثتان بالسَّقف كمحتضرٍ يتراءى له الموت في كُلِّ ثانية. كانت تُفكِّرُ بالحُلم الأخير الذي ضمَّهما سويَّةً، ثُمَّ يتكرَّر المشهد وحلقات المسلسل كُلُّها أمامها، فتحاول فهم الأُحجية، وكعادتها تفشل، إلى أن يغلبها النُّعاس، فتنام دون أن تراه.

****

الفصل الثاني

وصدقت نبوءةُ الأحلام

لا تتوقَّف عن حُلمكَ حتَّى لو باتَ مستحيلاً

انقضت ثلاثة أشهرٍ ومنى منكبَّةٌ على عملها الجديد بهمَّةٍ ونشاط، بمرحٍ أضفى على حياتها الكثير من الارتياح، وخلال هذه المُدَّة نسيت فارسها أو لعلَّها تناسته لتغوص في أعماق حياتها الجديدة دون حُبٍّ يُكركِبُ حياتها.

وفي الأوَّل من إبريل كانت تقف أمام نافذتها في مقرِّ الشَّركة وتستمتع إلى قطرات مطر نيسان وهي تتهاوى على نافذتها الزُّجاجيَّة وكأنَّها تُريدُ أن تخترقها لتستقرَّ ومنى سويَّةً، فتناجي فارسها وحُبَّها اللَّامتناهي بصحبة تلك القطرات.

كانت الأرض عطشى وفي حاجةٍ إلى ماءٍ غزيرٍ يُثلِجُ صدرها تُودِّع به أواخرَ الشِّتاء، فتكاثفت السُّحب أكثر من ذي قبل، واسودَّت السَّماء فتضاعفت حبَّات المطر وكأنَّ الشِّتاء يُريدُ أخذ كُلِّ شيءٍ لديها قبل أن يرحل إلى المجهول. كانت شاردةً في حنينها ذاك حين انتفض بدنُها بعد أن سمعت صوت رجالٍ عدَّة وهم يُلقون عليها تحيَّة السَّلام، فالتفتت إليهم خجلةً وبادلتهم التَّحيَّة بالمثل، وسمحت لهم بالدُّخول إلى مكتب المُدير؛ إذ كان لهم موعدٌ معه، وكان

بانتظارهم في مكتبه. كانوا سبعة رجالٍ من رجال الأعمال، حيَّوها بأدبٍ بالغٍ ودخلوا ليلقوا المُدير باستثناء أحدهم، فهو لم يكن مالكاً ولا أحمدَ، بل كان أروع من الاثنين، وبحضوره قد طغى على كُلِّ الرِّجال! نظر إليها نظرةً فضوليَّةً غريبة، وأطال النَّظر إلى عينيها، وهكذا تسمَّرت العيون لوحدها دقائقَ وهي شاردةٌ وشاهدةٌ على قصَّة حُبٍّ زُرعت في الأحلام، وها هي أوَّل بذورها في أرض الواقع تنمو. قد صمت لأجلهما الكون كُلُّه باستثناء العيون التي حكت بلغتها ما في قلبيهما من ولهٍ وعشق.

عيناه السَّوداوتان كانتا كليلٍ لا مدَّ له، وتفاصيل الوجه هي نفسها لم تتغيَّر.

ارتبكت منى من نظراته الجريئة والثَّاقبة، فجلست أمام طاولتها تفركُ كلتا يديها ببعضهما وعيناها مُثبَّتتان على ما أمامها من مستندات، بينما ظلَّت عيناه تراقبانها بالفضول نفسه وكأنَّه يُحاولُ أن يُشبعَ عطشه منها، إلى أن كسر حاجز الصَّمت بعد أن وقف أمام مكتبها بشموخه الحادِّ كالصَّقر:

- تبدين أجمل بكثيرٍ ممَّا كُنتِ في الأحلام!
- وهل تعرفني؟
- نعم، أكثر ممَّا تتخيَّلين. منذُ خمس سنوات وأنا ألقاكِ.

- أين؟ فأنا لم أركَ إلَّا الآن.
- في حُلمٍ عابر، أو لنقل في بضعة أحلامٍ عابرة.

دخل الغرفة وراء أقرانه بعد أن أدخلها في دوَّامةٍ من الحيرة، وحامت في رأسها أسئلةٌ كثيرة، فتمنَّت أن يخرج فوراً ليُجيبها عنها. كيف؟ ومتى؟ ولماذا؟ لا أحد يعرف هذه الأجوبة سوى فارسها، فهذا الشابُّ يراها أميرة أحلامه كما لو أنَّه فارسها.

تغابت منى حين تحدَّث معها لئلَّا تفضح شوقها وحنينها إليه، لكنَّها ظلَّت مذهولةً لأنَّ حُلمها قد أضحى واقعاً، فماذا ستفعل حيال ذلك؟

حين أدخلت إليهم المستندات المطلوبة لاحظت أنَّ عينيه تراقبانها طوال الوقت، ثُمَّ خرجت بعد أن فرغت ممَّا طلبه المُدير منها، وجلست أمام طاولتها تُفكِّرُ به بعد أن جاءها بقدميه إلى مكتبها، فكَّرت بأيَّامٍ قد تغدو أجمل. شعرت بالخوف من واقعٍ يمكن أن يسرقَ منها حُلماً كان يوماً ما جميلاً، وبالحيرة من حُبٍّ سيكبر في واقعها فخافت عليه من غدر الأيَّام. لقد خافت أكثر أن تغدرها دمعتُها اللَّئيمة وتسيل لتفضحَ شوقها إليه، فهي الآن بالذَّات لا تُريدُها، لا تُريدُ لها أن تظهر لأيٍّ كان.

انتهى الاجتماع بسرعةٍ وغادر الجميعُ ما عداه، ظلَّ مُتسمِّراً أمامها يُحاولُ الغوص في أعماقها، ويُحاولُ الكشف عن ماهيَّتها. لمَ اختارها القدرُ بالذَّات لتكون شريكةً لهذا الرَّجل في الأحلام على مدى خمس سنوات؟

بقيت صامتةً لا تدري إن كان عليها أن تبدأ الحديث أم تترك له دور البطولة ليلعبه كما لو كان في أحلامها! أتركض إليه وتضمَّه لتشمَّ عطره الذُّكوريَّ أم تحتضن خيبتها وتبقى على صمتها إلى أن يكسره هو؟ وبالفعل كعادته بدأ الحديث حين سألها عن اسمها:

- منى.
- منى! الأمنيات! وهل تراها تحقَّقت؟

وابتسم تلك الابتسامة التي ذابت بها منى، ففاجأها باسمه.

- مشعل، أيُعجبك؟
- اسمٌ جميل.

وأزاحت بصرها عنه إلى الأرض خجلةً من دوام نظراته المُتفحِّصة.

هي كانت تتوقَّع أنَّ له اسماً كهذا، فمن أشعل أحلامها بسعادةٍ في ليلةٍ قمريَّةٍ قادرٌ على إشعال واقعها حُبَّاً وأملاً.

مدَّ يده ليُصافحَها، وحين مدَّت يدها بعد تردُّدٍ لم يدم طويلاً قبض عليها بحنوٍ وظلَّ يتأمَّل عينيها الجميلتين دقائقَ إلى أن أفلت يدها ورحل كما جاء، ولكن من الباب هذه المرَّة، فلم تكن في غرفتها مرآةٌ ليعبرَ منها.

أمسكت يدها وقبَّلتها تلك التي لمسها ذاك الفارسُ أخيراً، يدها التي لامست يده، وهكذا مرَّت بضع ساعاتٍ وهي في صدمةٍ لا تُنسى.

عادت إلى البيت بعد انتهاء دوامها، عادت وفكرُها بما حدث، لم تركب الحافلة بل أحبَّت أن تسيرَ تحت مطر إبريل، بثَّت للمطر أفراحها وأحلامها، ومع أنَّ البيت يبعدُ عن مقرِّ الشَّركة بمقدار ساعةٍ ونصف ساعةٍ سيراً إلَّا أنَّها لم تشأ أن تُضيِّع على نفسها فرصةً كهذه. استطاع أن يسرقَ قلبها وتفكيرها، وهكذا لم تشعر بطول الطَّريق؛ لأنَّه كان معها في كُلِّ ثانيةٍ تمضي.

لقد عرفها إذاً، كان يحلمُ بها كما كانت تحلم به، ثلاثُ سنواتٍ انقضت على انفصالها عن أحمدَ، ثلاثُ سنواتٍ ملأتها بالعشرات من الأحلام، وهو قد قالها لها بوضوح، خمسُ سنواتٍ وهو يراها أميرته. كانت ماتزال زوجةً لأحمدَ وهو يراها أميرته في الأحلام، كم من الأحلام جمعتهما سويَّةً! كم ليلةٍ التقيا سويَّةً! كم قلبٍ رسماه!

وصلت إلى البيت أخيراً، وطرقت الباب طرقاتٍ عدَّةً وكأنَّها هاربةٌ منه أو رُبَّما لتقرأ ما كتبته له. فتحت لها هبة الباب، فأسرعت إليها وعانقتها فرحةً بقدوم فارسها إلى أرض الحياة ليبثَّ فيها الحُبَّ. عانقت أُختها بكُلِّ قوَّةٍ وبدأت بالنَّحيب! ولكن لمَ؟ إنَّها لم تُدرِك السَّبب. لقد سمحت أخيراً لدمعتها التي خشيت من خيانتها أمامه بالانسكاب، والآن تُرافقُها العديد من العَبَرَات.

لم تفهم هبة ما قد حصل لمنى بعد، اكتفت بإدخالها إلى المنزل، ثُمَّ أحضرت لها كأساً من الماء البارد لتروي ظمأها وتُخبرها بما جرى لها، فقالت منى بصوتٍ أشبه بالنَّشيج:

- رأيته أخيراً! رأيته يا هبة! كما لو أنَّه في الأحلام جاءني، بطوله الفارع، وسماره الخليجيّ، وابتسامته الجذَّابة، ويده الدَّافئة، بليل عينيه الأسود جاءني، أوصافه كُلُّها كما في رأيتها الأحلام.
- من تقصدين؟ هل تقصدين فارسك؟
- نعم، أقصده هو! لقد عرفني من النَّظرة الأُوَلى حين التقت عيناي بعينيه. لقد أدام النَّظر إليَّ فأربكني، وأنا التي انتظرتُ هذه اللَّحظة وقفتُ اليوم دون أن أنطق بكلمة، لم أدرِ ما عليَّ قوله، وهو لم يكفَّ عن الابتسام لي. لقد قالها يا هبة، قالها أخيراً، قال إنه أمضى خمس سنواتٍ وهو يلتقي معي في أحلامٍ عابرة!

- ما اسمُه؟ كم عمره؟ لأيّ بلدٍ ينتمي؟ ما عمله؟ حدِّثيني بمجمل التَّفاصيل، وإيَّاكِ أن تنسي شيئاً.
- لم أعرف شيئاً سوى اسمه، اسمه مشعل. أليس اسمُه رائعاً؟!

مشعل الذي أشعل لهيب قلبي بحُبِّه، ولم يُطفئه.

وقصَّت عليها بالتَّفصيل المُملِّ ما حدث معها مُذْ رأته حتَّى مغادرته.

في ذلك اليوم وللمرَّة الأُولى جلست منى على طاولة الطَّعام مع هبة وزوجها مصطفى، كانت شهيَّتُها مفتوحة، فأكلت بنهمٍ وكأنَّها كانت في مجاعةٍ شديدةٍ وخرجت للتوِّ منها.

دخلت غرفتها في تلك اللَّيلة وهي في أوج سعادتها حتَّى إنَّها لم ترها في هذه المرَّة كسجنٍ باردٍ لها، بل كانت دافئة؛ رُبَّما لأنَّ أنفاسه اقتربت منها، فكان كُلُّ ما في غرفتها يُوحي بحياةٍ جديدة، بالأمل، بالحُبّ.

أخرجت دفترها وتأمَّلته لتشرع في الكتابة، ولكن في هذه المرَّة صار بوسعها أن تكتب عنه كما رأته في واقعها:

"عُدتَ يا حبيبي بعد ثلاث سنوات من صبرٍ لا يُحتمل.

عدتَ ولم ينقص من حنان يديكَ شيء، وكما عهدتُها مازالت دافئة.

عُدتَ ورائحةُ عطركَ مازالت نفَّاذة وكأنَّ حضوركَ يُغطِّي المكان.

مـا أروع ليـل عينيـكَ السَّـوداوين! لكأنَّهمـا ليـلٌ لا ينجلـي! كانـت ترمقانني بنظرةٍ لم أرَ مثلها من قبل.

وابتسامتُك الجذَّابة التي ارتسمت على مُحيَّاك ألا تدري بأنَّ أُختها قد ارتسمت في قلبي أنا.

ما أجملكَ بذلك الزِّيِّ الخليجيِّ! لكأنَّكَ فارسٌ بلا فرس!

أراكَ تُريدُ امتطاء حصانٍ أصيلٍ في صحراءَ مقفرةٍ وعلى يدكَ صقرٌ جريح.

آه.. يا فارسي، لم أتوقَّع أن أكتبَ عن أشياءَ حصلت في الواقع مع أنِّي رغبت بها وبشدَّة، لم أكن على علمٍ بأنَّكَ ستأتي في يوم من الأيَّام، ومع ذلك كُنتُ جاهزةً لاستقبالكَ في أيِّ وقتٍ ترغب به بالحضور.

كُنتُ على ثقةٍ بمجيئك، وكُنتُ أَترقَّبُ زيارتكَ في أقرب وقت.

في لقائنا الأخير حين بكيتَ في أحضاني عرفتُ حينها أنَّكَ تبحثُ عنِّي وأنَّكَ تحتاجني كما أحتاجك، لكنِّي اليوم بالذات لم أستطع أن أُحبَّكَ كما في الأحلام، لم أستطع أن أهبطَ في أحضانك، رُبَّما هو خجلي وحيائي منك، ورُبَّما لأنِّي صُدِمتُ مُذْ رأيتُك.

لم يعد يعنيني شيءٌ سوى لقياكَ مُجدَّداً، ولكن، أرجوكَ كُفَّ عن العبث في أحلامي، فها أنتَ ظهرتَ رجلاً فاق كُلَّ الرّجال، فابقَ في واقعٍ سيغدو أشهى لكلينا".

نامت في تلك اللَّيلة نوماً مُتقطِّعاً؛ إذ كانت تستيقظ على ذكرى أيديهما معاً ثُمَّ تنام على الذِّكرى ذاتها. لم تُرد أن تفقدَ بريقها، فتعود وتغوص في بحر النَّوم دون أن يهمَّها إن اجتمعا في ذلك الحُلم الذي لم يبدأ بعد، ورُبَّما لن يبدأ أبداً، فهو قد جاءها واقعاً، واستطاع أن يُحيلَ أحلامها إلى واقعٍ حقيقيّ بدلاً من الخيال. لقد كان رجلاً بالفعل، لم يهرب منها إلى المرآة بل هرب من كُلِّ شيءٍ إليها.

كانت ابتسامتُه كفيلةً لتعرفَ أنَّه لم يُحبَّها في أحلامه فقط، بل كان ينتظرها في واقعٍ لم يدرِ ميعاد تحقُّقه. ماذا كانا يفعلان في حلمه؟ هل قبَّلها؟ كم مرَّةً احتضنها؟ هل مسح دمعها المُنسكب بكثافة؟ كم مرَّةً وعدها بحبٍّ لذيذ؟ هل ربت على شعرها؟

ملايين من الأسئلة انهمرت عليها، فودَّت أن تسأله عنها لتعرف بها عنه الكثير، والكثير مازال غامضاً أمامها.

هل جاء إلى دمشقَ بحثاً عنها؟ أم أنَّها صُدفةٌ من القدر؟ هل يهمُّه أمرُها إلى حدِّ أن يتركَ دياره ويأتي إليها؟ هل عرف أنَّها من

دمشقَ فجاءها؟ أم أنَّه لم يدرِ من أيّ دولةٍ هي؟ رُبَّما كان مثلها، فهي لم تدرِ في أيّ دولةٍ نشأ وترعرع، ولولا زِيُّه الخليجيُّ لما عرفته.

جلست على حافَّة السَّرير قليلاً، ثُمَّ نامت على ظهرها، لتنام بعدها على جنبها الأيمن، التفتت ونامت على الأيسر، ووضعت يديها تحت خدَّيها وكوَّرت جسدها، ثُمَّ نهضت وسارت في الغرفة جيئةً وذهاباً، وجلست أمام طاولتها قليلاً، لتذهبَ وتقفَ أمام المرآة العرجاء. ابتسمت لمنى وكأنَّها تُودِّعُ الأحزان لتستقبل الأفراح.

وحين أطلَّ عليها الصُّبحُ من النَّافذة ابتسمت بكُلِّ سعادة، وارتدت ملابسها على عجل، فرُبَّما سيأتي إليها وكُلُّه حنين. اختارت ملابسها بعنايةٍ فائقة، وارتدت أجمل ما لديها من فساتين، سرَّحت شعرها وجعلته يسيرُ على كتفيها كشلَّالٍ غزير، ثُمَّ تناولت فطورها هذه المرَّة بصحبة هبة، وقبَّلتها على خدِّها قبل أن تنطلقَ إلى عملها مسرورةً كما جاءت منه في اليوم الماضي.

توقَّف شتاءُ إبريل ولاح لها قوسُ قزحٍ يُحيِّيها بألوانه السَّبعة الزَّاهية، وبين جبال قاسيونَ كان يُطِلُّ وكأنَّه بريشة فنَّانٍ قد رُسم. كانت شاردةً وتائهةً كعادتها التي بدأتها منذُ أوَّل حُلمٍ التقيا فيه.

وصلت إلى مقرِّ الشَّركة، ودلفت إلى مكتبها وهي في سعادةٍ صارت على درايةٍ الآن بمصدرها، إنَّها ستراه، ولكن لم تكن تدري متى سيكون اللِّقاء الثَّاني الذي سيختاره القدر، هل مشعلُ يُحبُّ الغياب أكثر من الحضور كما لو كان في أحلامها؟ هل يعشقُ الغموض ويُحبُّ التَّخفِّي والهجر؟ هي لا تُريدُه قاسياً كما كان قبل أن تلقاه، تُريدُ أن تنهلَ من حُبِّه لترتوي.

انكبَّت على عملها بينما شُغلها الشَّاغل فارسها مشعل، ياه.. قد أصبح لهذا الفارس اسمٌ تعشقه، اسمٌ يحتويه، اسمٌ يُشعلُ حياتها حُبَّاً وهياماً!

****

خرجت من الشَّركة عصر ذلك اليوم بعد أن أنهت دوامها لتراه واقفاً بطوله الفارع أمام سيَّارةٍ فخمةٍ اعتقدت أنَّها له، كان مازال كما البارحة، عيناه لم تبرح النَّظر إلى عينيها العسليَّتين، مبتسماً ابتسامةً يسقطُ القلبُ لها، فحيَّته بابتسامةٍ خجولةٍ ظهرت على مُحيَّاها دون أن تقف، لقد تابعت سيرها البطيءَ وعيناها نحو الأرض مُثبَّتتان. كان في داخلها العديد من الأسئلة، ولكن حين

تراها يغدو الصَّمتُ سيَّد الحضور، تنتحرُ الكلمات وتحتضرُ الحروف في حضرته، فلا يبقى أمامها سوى بقايا من ابتسامات الأمس.
أوقفها حين أمسك بيدها وطلب منها أن يوصلَها في سيَّارته السَّوداء كظلام عينيه، فوافقت على مضضٍ بعد تردُّدٍ ليس بالكثير، ومع أنَّ قلبها كاد أن يسقط فرحاً إلَّا أنَّها تظاهرت باللَّامبالاة مراعاةً لكبريائها الذي فاق كبرياءه، فقد وجدتها فرصةً لتطرح عليه أسئلةً مازالت تبحث عن أجوبتها.

جلست بجواره في حياءٍ، فراح ينظرُ إلى الطَّريق حيناً وإليها أحياناً، لم يكن يراها فتاةً عاديَّة، كان يراها أميرةً فاقت كُلَّ الأميرات بحسنها وجمالها، كيف لا وهي التي غيَّرت كتب التَّاريخ حين جاءته بالأحلام تطلب حُبَّه؟! لم يُصدِّق بعدُ أنَّ أميرته الآن بجواره وليست في حُلمٍ مجهول المعالم، لم يسألها عن مدينتها، فهو على علمٍ بأنَّها من بلد الياسمين، وهي نقيَّةٌ كياسمينِ، دمشق خجولةٌ كدمشقَ حين ترتدي الأبيض، غامضةٌ كبردى، شامخةٌ كقاسيونَ، عميقةٌ كحاراتها القديمة، بائسةٌ كشتائها، جذَّابةٌ كحدائقها. وهكذا كان الصَّمتُ كفيلاً بأن يُحدِثَ الضَّجَّة في قلبيهما معاً.

في هذه المرَّة هي من شقَّت جدار الصَّمت وليس هو حين سألته عن مدينته، فأجابها جواب الواثق (دبي).

عرفت الآن دولته، فأنَّى له كُلُّ هذا الشُّموخ إن لم تكن مدينة دبي موطنه، أخذ منها الاعتزاز بنفسه، الشُّموخ، الكبرياء، الأناقة. كُلُّها تحكي قصَّة مدينةٍ اجتمعت فيها هذه الصِّفات.

ومن دبي بلد الشُّموخ إلى دمشقَ بلد الياسمين رُويت قصَّة حُبٍّ بدأت في الأحلام ونمت في واقعٍ هو أبعدُ ما يكون عن دبي، في دمشقَ موطن الحُبِّ والألم.

الآن باتت تعرفُ اسمه وموطنه، لكنَّها خجلةٌ من أن تسأله المزيد، وهو مازال غامضاً كالبحر، عميقاً كالوادي، فتمنَّت الخوض في ذهنه لتعرف بما كان يُفكِّرُ في تلك اللَّحظات. أمَّا هو فقد كان وضعه مختلفاً، قد عرف عنها كُلَّ شيءٍ في وقتٍ قصير، واستطاع إحضار لمحةٍ ذاتيَّةٍ عن حياتها من مصادرَ موثوقة.

شكرته قبل أن تترجَّل من سيَّارته، وودَّعته بابتسامةٍ ارتسمت على مُحيَّاها، ثُمَّ دخلت البيت سعيدةً لاقتحامه عالمَها الواقعيَّ، سعيدةً لأنَّها سمعت صوته، ومع أنَّه لم ينطق بالكثير فقد أشبع رغبتها في ذلك.

دخلت عالمها الذي كانت تحسبه سجنها، فغدا الآن منبع سعادتها. رقصت على رؤوس أصابعها وهي تُدندنُ بأغاني الحُبِّ،

هذا الحُبُّ الذي اقتحم عالمها من جديدٍ، فحطَّم حصون قلبها، ودخل دون هوادةٍ وبلا استئذان.

****

لم تملَّ من الكتابة له، فبعد غيابه عن ساحتها قرابة خمسة شهورٍ لم تجد سوى القلم سُلواناً لوحدتها وخيباتها المُتلاحقة، فهو قد هجر أحلامها ولم يزرها مُذْ رأته في الواقع أوَّل مرَّة:

"قل لي يا فارسي مشعل: ما سِرُّ اختفائكَ مُجدَّداً عن ساحة لقاءاتنا بعد أن صارت واقعاً؟

لمَ تعشق لعبة (الغمَّيضة) معي؟ كُنتَ في أحلامي هكذا حيثُ ظننتُكَ طيفاً تهوى الابتعاد والهجر، لم أحسبكَ وقد صرتَ واقعاً تُجيدُ لعب الدَّور بطريقةٍ أكثر احترافيَّة.

عشقتُكَ لدرجة تعلِّقي الشَّديد بك، وقد فرحتُ حين حولَّتَ أحلامنا إلى واقع، وهو ما كُنتُ أرجوه منكَ ومن الأيَّام. لقد تمنَّيتُ رؤيتكَ كي أتلمَّس وجهكَ بيديَّ الباردتين بخلاف يديكَ الدَّافئتين، لكنَّكَ من الوصل حرمتني، وسددتَ الدُّروب كُلَّها أمامي.

أخبرني أيُّها المشعلُ المُنير، يا من هويتُه في أحلامٍ عابرة، كيف السَّبيل إلى دروبك، ودروبُكَ ملأى بأشواكٍ لا حصر لها؟! كيف

السَّبيل إلى لُقياكَ ونحن مُذْ التقينا أوَّل مرَّةٍ منذ خمسة شهورٍ لم نلتقِ سوى مرَّتين عرفتُ خلالهما أشياءً في غاية البساطة عنك.

لمَ أنتَ مُبهمٌ إلى هذه الدَّرجة؟

لمَ لا أستطيع إلى الآن سبر أغوارك؟

لم أعد أفهم أسرارَكَ الغامضة، فقد أصبحتَ سرَّاً أكبر بكثيرٍ ممَّا كُنتَ عليه!

أرجوكَ يا حبيبي، يا من كُنتَ حبيبي، عُدْ إليَّ ولو في حُلمٍ واحدٍ عسايَ أُحبُّكَ من جديد، ففي كُلِّ حُلمٍ كُنتُ أراكَ فيه كُنتُ أهواكَ أكثر، وأنتظرُكَ أكثر، وأشتاقُكَ أكثر".

أغلقت دفترها وأودعته في ذلك الدُّرج الحديديّ، ثُمَّ أغلقت عليه بالمفتاح خشية أن يهربَ والكلمات إلى عالمٍ آخرَ، وكأنَّها رسائل لم تُكتب أو لم تصل بعد، رسائل تاهت قبل أن تعرفَ وجهتها.

كانت الأيَّام أبطأَ ممَّا تتخيَّل، وكان يلعب معها لعبة (الغمَّيضة)، وهو فقط من يحقُّ له الحضورُ والغياب، له فقط الحقُّ في أن يسألَ ويستفسرَ ويُحدِّث، ولها فقط الحقُّ في النَّظر إلى وجهه نظراتٍ مازالت خجولةً وهي تُحاولُ العبور إلى أعماقه لتفهمَ أيَّ كائنٍ جليديٍّ هو، وهي فقط من يحقُّ لها الاستماع له، هي فقط

من يحقُّ لها الوقوفُ في محطَّة الانتظار لعلَّه يُفاجئُها يوماً بموعدٍ بلا انتظار.

فأيُّ الرِّجال هو؟ وهل قسوته نشأت من صحراءِ بلاده أم من جليد بلادها؟

لقد نسيت أن تُخبرَه من أيِّ برجٍ هو لتعرفَ حجم الغموض الذي يكتنفُه، ولتعرفَ كيف تفهمه، ولتُدرِكَ السَّبيل للتَّعامل معه.

****

رأته في ذلك اليوم في تلك الحديقة الغنَّاء التي اعتادت ارتيادها لتُصفِّي ذهنها قليلاً من همهمات الحياة، وعلى المقعد ذاته تحت ظِلِّ شجرة الزَّيزفون والتي برائحتها لا يعبق المكان فحسب بل الحديقة بأكملها. جلس بجانبها بلا استئذانٍ، فهذه عادته؛ إذ اقتحم أحلامها بلا استئذانٍ مثلما اقتحم واقعها. لم يُطيلا النَّظر في هذه المرَّة إلى بعضهما بل كانا ينظران إلى الاتِّجاه ذاته، إلى مجموعةٍ من الصِّغار الذين يمرحون ويلعبون بالكرة وهم سعداء؛ لأنَّهم لم يفهموا بعدُ معنى الحُبِّ حين يجيئهم في الأحلام.

وضع يده وراء ظهرها، وسألها:

- **كيف تبدو لكِ الحياة؟**

- شهيَّةً حين نعيشُها بحُبٍّ، تعيسةً حين نعيشها بلا أحلام، قويَّةً حين نعشقُ التَّحدِّي، جميلةً حين نرغبُ بالمزيد من الحياة، خضراءَ حين نُريدُ الأمل، باكيةً حين نتلذَّذ بالآلام.
- والأحلام؟
- هي جميلةٌ حين تجمعُكَ بمن تهوى في لقاءاتٍ مجهولة المعالم، حين تكون في عالمٍ آخرَ ينتهي حالَ استيقاظك، فتُودِّع عالمكَ الافتراضيَّ لتغوصَ وتغوصَ حدَّ الثَّمالة، وتغرقَ في قاع الحُبِّ دون أن يلومَكَ أحدٌ على مشاعركَ هذه، وإذا ما أردنا استبداله بالواقع كان أشهى بكثير.
- والكتابة؟
- هي عالمٌ من أحلامٍ أُخرَ، لكنَّنا هنا من نتحكَّم بمشاعرنا، ونُوزِّع أدوار البطولة على من نشاء ونرغب. هي خيالٌ ثابتٌ لا يتحرَّك مع الأيَّام، فنبعد عن واقعنا بكُلِّ ما فينا. هو حُبٌّ من نوعٍ آخرَ، وعشقٌ لا ينفد، وحبيبٌ يُصبحُ بطلاً لكُلِّ روايةٍ نكتبها. إنَّنا نعشقه كما لو كان حقيقيَّاً بكُلِّ عفويَّته وبساطته، ومعنا يكبرُ ويقتاتُ، وهكذا تحيا كما تشاء وتختمُ قدركَ وقدرَ من أحببتَ بلقاءٍ يتَّسمُ بالسَّعادة والهناء. لقاءٌ في الأحلام وآخرُ مُتخفٍّ بين السُّطور بمساعدة قلمٍ مدادُه لا ينفدُ بسهولة؛ لأنَّ الأمر ببساطة مُرتبطٌ بعفويَّة تلك الأقلام

التـــي اســـتطاعت أن تُحيـــلَ الحُلـــم إلـــى مـــدادٍ رســـمَ درب الحُلـــم اللَّامتنـاهي، فاختبـأ الحبيـب بـين ثنايـا الحـروف، واختبـأت الحبيبـة خلـف ذلـك العمـود الفهرسـيّ الطَّويـل بعيـداً عـن عيـونٍ تترقَّـب لهـم الشَّرّ.

- ومالك؟

جاءها سؤاله كالصَّاعقة، فاجأها، كركبها، فنظرت إليه بطرف عينها مُرتبكةً من اسم (مالك) الذي نطق به مشعل قبل ثوانٍ! كيف عرف بأمر مالكٍ العاشق من طرفٍ واحد؟ هل عرف فارسها ذلك؟ فهي وإن أحيت الحُبَّ في قلبه فهو لم يُفلح بذلك لوجود فارسها في قلبها، لكنَّها استعادت رباطة جأشها وثقتها بنفسها وأجابته ببرودٍ وكأنَّ الأمر لا يعنيها:

- أوه.. أكل الدَّهر عليه وشرب. لقد أحبَّني جدَّاً وتاه في هيامي، لكنِّي لـم أستطع أن أُبادلَـه نصفَ شعوره؛ لأنِّـي كُنتُ هائمـةً فـي حُـبِّ أحدهم. تعلَّق بي مُتوسِّلاً منِّي الحُبَّ، وبكى كي لا أهدرَ حُبَّاً يمكن أن يجمعنـا سـويَّةً، وأنـا كُنـتُ حينهـا أخشـى الـتَّلفُّظ بهـذه الكلمـة، وأخشـى عليـه مـن نفسـي أيضـاً. لقد خشيتُ عليـه مـن الخيانـة إن استمرَّ حُبُّ ذلك الطَّيف في قلبي.

- وهل أحببتِ ذلك الطَّيف؟

صمتت بعد أن تورَّدت وجنتاها خجلاً، فكان صمتها كافياً لفهم الإجابة، لذا لم ينبس ببنت شفة.

وقبل وداعها استجمعت شجاعتها للمرَّة الأُولى وهو واضعٌ كفَّ يده في كفِّ يدها، وسألته بخجلٍ لم يخفَ عليه:

- متى سيجمعنا لقاءٌ آخر؟
- دعيها تأتي صدفة. لعلَّ القدر يُخبِّئُ لنا لقاءاتٍ وليس لقاءً واحداً. حين تشتاقين إلى رجل أحلامكِ اكتبي له ولا تتردَّدي، استمتعي بالكتابة لتعيشي لنفسكِ لا لغيرك. اكتبي كي تعشقي بطلكِ أكثرَ فأكثر، اكتبي حتَّى تملَّ منكِ الكلمات ويهربَ منكِ القلم، اكتبي كُلَّما رأيتِ الفرصة مناسبةً لتُعبِّري عن حنينك، ولا تحبسي دموعكِ، اتركيها تنهالُ على صفحاتِ دفترك، اكتبي وجعك.

وغادر غامزاً إيَّاها بطرف عينه اليُمنى وكأنَّه انتصر عليها، على شيءٍ هي نفسها لم تنل فرصة أن تدري ما هو، المُهمُّ أنَّه هو فقط من خرج من المعركة مُنتصراً ورافعاً رأسه.

يا له من غامضٍ غموض البحر! لا، لم يكن بحراً، كان محيطاً عملاقاً حيث السِّباحة فيه شبه مستحيلة، والغوصُ إلى أعماقه من سابع المستحيلات!

ومع أنَّ حوارها معه كان مختصراً كعادته إلَّا أنَّها عادت إلى بيتها شبه مسرورة، فقد فتح أخيراً حواراً حقيقيَّاً معها، حواراً يربطُ قلبيهما ببعضهما.

مشت في تلك الدُّروب وحيدة، لا لم تكن وحيدة، فقد كان معها في خيالها، كان يُراقبُها، يُراقبُ موضع قدميها، يُراقبُ صمتها الخجول، يُراقبُ عينيها العسليَّتين اللَّتين كانت تخشى أن تُطيلَ إليه النَّظر بهما كي لا تفضحها أشواقُها.

****

مشت دون أن تتعب؛ لأنَّ عقلها هو من يعمل عنها، وفكَّرت به طويلاً دون ملل.

وكُلَّما حاولتِ الدُّخول إلى أعماقه كان يمنعُها ويُحصِّنُ من جديدٍ أسواره، رُبَّما كان مثلها يخشى أن تقتحمَ قلبه بلا استئذان وهو الرَّجلُ ذو الكبرياء الحادِّ الشَّامخُ كأبنية دبي العملاقة، وهو وإن أحبَّها حقَّاً فلن يضع قلبه تحت تصرُّف قلبها دون أن يفهمَ أسرارها ودون أن يعرفَ ماهيَّة تفكيرها، ومع ذلك كان يهواها كما تهواه، ولكن كانت تلزمه الشَّجاعة ليخوضَ غمار الحُبِّ معها.

وصلت إلى البيت وجلست أمام الطَّاولة دون أن تُبدِّلَ ملابسها؛ إذ كانت مُتعطِّشةً للقاءٍ يدومُ بينهما وإن كان في صفحات

دفترها الصَّغير. وضعت دفترها لتكتبَ لكنَّ الكلمات في هذه المرَّة قد هربت وحدها إلى عالمه ليكتبَ هو بدلاً عنها.

فهي وإن كانت تهواه منذُ ثلاث سنواتٍ إلَّا أنَّ صورتها محفورةٌ في الفؤاد منذُ خمس سنوات، فهو الأحقُّ بالكتابة منها.

****

وبدأ يكتبُ عن أحلامٍ جمعتهما سويَّةً قبل خمس سنوات ليجمعهما من جديدٍ واقعٌ بدا له شبحاً وليس أملاً:

"أميرتي وصغيرتي..

لم أكتب لكِ يوماً؛ لأنّي كُنتُ أظنُّكِ جنّيَّةً تُحاولُ اللَّعب معي.

في تلك الأحلام ظهرتِ فاتنةً بفستانكِ الورديّ القصير، وكُنتِ أشبه بباربي ترقصُ بين الحقول، قبَّلتُكِ مرَّاتٍ عدَّة، وأخذتُكِ في أحضاني، رسمتُ لكِ درب الحُبّ لتعبريه لا لتقفي حيثُ أنت.

أرى في كلامكِ فراشةً قيَّدتها الأغلال، وفي صمتكِ كُلَّ لغات العشق تتحدَّث.

أراكِ صامتةً في كُلِّ حين، توَّاقةً لفتح أحاديثَ معي ولا تدرين كيف تكسرين ذاك الصَّمت المُحيط بك. أعلم أنَّ صمتي يُرهبُك، لكنِّي خائفٌ يا حبيبتي.

إنّي أخافُ من حُبٍّ يُعيدُ إليَّ الخذلان من جديد، وحين أُخبرُكِ عن خيبتي أخشى أن تُطِلَّ نظراتُ الشَّفقة من عينيكِ، وهذا ما يُرعبُني يا صغيرتي.

أُدرِكُ تماماً أنَّكِ مررتِ بتجربة حُبٍّ فاشلة كما مررتُ أنا بتجربةٍ مُماثلة، فابتعد قلبُكِ عن شيءٍ اسمه الحُبُّ وهربتِ به إلى أحلامٍ تُعيدُ لكِ ما سرقوه منكِ في الواقع.

أنا لا أرفضُكِ يا عزيزتي لكنّي أخشاك، أخشى الاقتراب منكِ أكثرَ ممّا اقتربت، وأخشى الابتعاد عنكِ فتضيعي في زحمة الأقدار والحكايا. غدوتُ تائهاً في متاهاتكِ الكثيرة.

حين تتملَّكُني الشَّجاعة سأتحدَّثُ إليكِ وأغوصُ في نهر عينيكِ العسليَّتين وكأنَّ الله خلق بهما أنهارَ الجنَّة كافَّةً، وها أنا أهيمُ بهما عشقاً دون أن أدري أين تهرب الكلمات.

صغيرتي..

كُنتِ معي طوال خمس سنوات، جمعتِ فيها صفات امرأة الطَّيف وامرأة اللُّغة، وكُلَّما حاولتُ الكتابة عنكِ صرختِ في أعماقي رافضةً أن يكتب عنكِ أحد، رافضةً أن تشتركي أنتِ واللُّغة في الإيقاع ذاته. أردتِ لنفسكِ أن تكوني امرأةً حُرَّةً، امرأةً من لحمٍ ودمٍ، وفي واقعٍ

سخيفٍ تعيش، امرأةً من ورقٍ قد تموتُ حين تتنصَّلُ اللُّغة ويهربُ الحرف، امرأةً من طيفٍ تموتُ حال استيقاظنا".

وضع القلم جانباً، ووضع رأسه الذي كاد ينفجرُ بين يديه كأنَّه يحميه من ذكرياتٍ تُهاجمه، فهو لم يكن يعلم كيف ستسيرُ أموره فيما بعد، لكنَّه كعادته تركها للقدر. ولكن هل كان عليه أن يهمسَ في أذنها بكلمات العشق؟ أم كانت ستفهم بمفردها عشقه لها؟

كبرياؤه كان أعند من كبريائها، فقد أرادها ملكاً له لكنَّه ظلَّ يخشى البوح بما في أعماقه لامرأةٍ كانت طيفاً وأصبحت لغة فيما بعد. والآن، وهي ماثلةٌ أمامه عمَّ الصَّمتُ فجأةً ليُصفِّقَا له قبل أن يبدأَ بالحديث.

لقد دفن أشواقه المُخزَّنة في قلبه طيلة خمس سنوات، وها هو يُعيدُ دفنها من جديدٍ لئلَّا يفضحه الحنين.

****

أرهقها هذا الحُبُّ، دمَّر كيانها، استنزف أيَّامها، هدر طاقتها، كما أفقدها حياتها وعبث بأحلامها. لقد حوَّلها إلى وردةٍ تحتضرُ في أرضٍ قاحلة، حوَّلها إلى فراشةٍ مقصوصة الجناحين.

لقد عادت تحلمُ به من جديد، ولكن هذه المرَّة في أحلام اليقظة. لقد أرادته طيفاً لتسعدَ بحُبِّه أكثر، أرادته فارساً للغتها كي تكتب عنه

كما تشاء وتمحوه متى ما شاءت. هي من خلقته حين دعت القلم ليكتب عنه، فحملت ما شاءت من الصِّفات الرَّائعة رافضةً تمرُّده عليها، كانت تُهدِّدُه بالممحاة إن عصاها لكونها سيِّدته شاء ذلك أم أبى.

وبمرور الوقت شعرت بالوحدة كثيراً ممَّا دعاها أن تُعانقَ ظلَّها بالمرآة، فهي من شهدت عزلتها ووحدتها وآلامها.

يا إلهي كم اشتاقت للحظات تُعانقُه فيها! أليس عناقه أولى من أن تُعانقَ روحها في المرآة. في السَّنة ثلاثُمائةٍ وخمسةٌ وستُّون يوماً، فيها اثنا عشر شهراً، وفي الشَّهر أربعةُ أسابيع، وفي الأسبوع سبعةُ أيَّام، وفي اليوم أربعٌ وعشرون ساعة، بينما في كُلِّ ساعةٍ ستُّون دقيقة، وهذه فيها ستُّون ثانية؛ فهل تبخلُ عليها الحياة بدقيقةٍ واحدةٍ يتعانقُ فيها ظلَّاهما سويَّةً؟!

تذكَّرت تلك اللَّيلة حين عبر مرآةً غير تلك التي اعتاد العبور من خلالها حيثُ لم تستطع اللَّحاق به حينها، ولم تدرِ بأنَّ هذه المرآة تُمثِّلُ دربه إليها، ومن خلال قسوة المرآة جاءها ليظهرَ أشدَّ قسوةً من المرآة نفسها، حتَّى إنَّه بخل عليها بعواطفَ هي أحقُّ من غيرها بها، وإلى الآن مازال رافضاً الاعتراف بحجم أشواقه إليها.

فإلى متى سيطولُ انتظارها هذه المرَّة؟ إلى متى ستبقى أسيرة حُبِّه وهيامه؟ لم تدرِ بأنَّ قلبها بات مُغرماً به إلى هذه الدَّرجة وأنَّه ينبضُ لأجله في الثَّانية آلاف النَّبضات، وكُلُّها تهمس باسمه، هو مشعل فارسها العربيُّ الأصيل الذي جاءها بلا فرسٍ وبلا سيف، جاءها مُحمَّلاً بأشواقٍ لا حصر لها.

وها قد عاد إليها في واقعٍ أشبه بالدَّراما العربية، في واقعٍ بات غريباً عليها، وفي أحلامٍ باتت مألوفةً لها، وكأنَّها لا تعرفه بتاتاً. كان إنساناً جامداً لا يُبالي، ينظرُ إليها في الدَّقيقة ستِّين مرَّةً وكأنَّه يُريدُ الغوصَ في أعماقها ومعرفة ماهيَّة تفكيرها. لقد أراد فهم أسرارها العميقة، وعبثاً يحاول، فيفشل.

هل لها أن تنسى اللِّقاء الأوَّل وكفُّ يدها تُعانقُ كفَّ يده؟ حينها لم تشأ أن تغسلَ يدها خشية أن تهربَ ريحة عطره التي سبقته وعبقت المكان قبله، وحينها اهتزَّ جسدُها بارتعاشٍ غريب، فقضى على كُلِّ تمرُّدٍ داخلها، وكانت حينها على وشك أن تقفزَ كما الأحلام إلى أحضانه باكية، فهي كانت في حالة شوقٍ فظيعٍ، لكنَّها لم تستطع بسبب نظراته الثَّاقبة كنسرٍ باحثٍ عن فريسة.

في تلك اللَّحظة، وحين توقَّفت السَّاعة لبرهةٍ خافت منه كثيراً وهي التي كانت تتمنَّى أن يجتمعا في واقعٍ أقرب إلى الخيال. لأوَّل مرَّةٍ

خشيت منى مشعل الذي أشعل أحلامها قبل أيَّامها، فهي إلى الآن لم تُدرِك حقيقة تلك المشاعر الظَّاهرة منه ولا تلك التي لم تظهر بعد، فكانت تخشاه بقدر ما كان يخشاها.

****

وكأنّه في أحلامها عاد ولم تتغيَّر طباعه عمَّا بات عليه.

في كُلِّ ستَّة أشهر يراها مرَّةً، يُبادرُ نحوها بحديثٍ جليديٍّ، ثُمَّ يختفي خلف باب الغياب.

أتراه عاود الدُّخول في مرآته من جديد أم أنَّه رحل إلى بلادٍ أشبه بالأحلام؟

لماذا حين يغيب تلك المُدَّة بأكملها لا يظهر لها طيفاً يحتويها في أحلامها؟

لقد امتلأ ذلك الدَّفتر، فأحضرت بدلاً عنه دفاترَ كُثراً، وفارسُها أصبح لغزاً مُبهماً لن تكفيه دفاتر الكرة الأرضيَّة قاطبةً لتكتب له.

من أين تبدأ الكتابة؟ هل تبدأ بطيفٍ رأته في ليلةٍ شتويَّةٍ شديدة البرودة عندما قبَّل كفَّيها وعيناه تنهلان بالعشق اللَّذيذ؟ أم تبدأ بفارس عشقه قلمُها قبل أن يعشقه قلبُها وكان يحضرُ ويغيبُ بين السُّطور كما يحلو له؟ أم تبدأ بمشعل الحبيب الذي حين هواه قلبُها

أعجبه حُبُّها له فصار يتدلَّل عليها ويحترفُ الهروب منها؟ لقد كان هذا الأخير يظهرُ مرَّةً في كُلِّ بضعة أشهر، ويُعاودُ الغوص في أعماقها من جديد، ثُمَّ يختفي دون ترك أيِّ رسالة وداع. في كُلِّ مرَّةٍ كان يُحاولُ كشف صمتها، يُحاولُ فهم آليَّة تفكيرها، وينظر إلى وجهها مئات المرَّات، فينهلُ من عسل عينيها، ويتفحَّصُها من خلال ظلام عينيه، ليُعاودَ التَّدقيق في ملامح وجهها، ويسألها أسئلةً مُبهمةً، فتُجيبُه بأجوبةٍ مُختصرة.

وفي كُلِّ مرَّةٍ تكاد تصرخ في وجهه أن يُزيحَ نظراته القاسية واللَّامبالية عنها، أن يضمَّها إلى صدره ويُسمعَها كلام الغزل كما لو أنَّهما بطلان في دراما تركيَّة. لقد أرادته حبيباً ذا كلامٍ معسول، بغزله وعشقه واهتمامه، أرادته بدفئه وحنانه وعناقه وقبلاته. كُلُّها مازالت تتمنَّاها، فلمَ حرمها منها الآن؟ ألا تكفيه خمسُ سنواتٍ من الحرمان لم يرها فيها إلَّا في أحلامه؟! أليست وقتاً كافياً ليكتشفها؟! لمَ عليه أن يُضيِّعَ الآن سنواتٍ من عمرٍ جديد يعيشانه ببدايةٍ جديدةٍ وبحُبٍّ وعشقٍ جديدين، تكون خاليةً من أحلامٍ مُستحيلةٍ واكتشافاتٍ غامضة؟!

لقد حاولت أن تصرخ في وجهه مراراً:

"كفى! افهمني، وكن حبيبي! فأنا لم أكن يوماً طيفاً ولن أكون، لم أكن حرفاً تكتبه، ولن أكون لغة تختارها بمفردك! أنا منى حبيبتُكَ، أنا من لحمٍ ودم. انسَ تلك السَّنوات الخمس وفكِّر في يومٍ واحدٍ نعيشه كما الأحلام، وبإرادتنا نُحيلُه كما نشاء ونرغب".

لكنَّها لم تجرؤ على ذلك، فصمتُها كان على أشدِّه. كيف لا وهي مازالت تخشاه؟

هو لم يفهم صمتها كعادته، عاد من جديدٍ ليقتحمَ سكينتها ويُدقِّقَ في لغز عينيها مُحاولاً أن يفهم، ولكن عبثاً كانت مُحاولاته.

لمَ هي بالذَّات من اختارها القدر ليُعلنَها أميرةً في أحلامه لسنواتٍ عدَّة؟!

وها هو يكتشفها اليوم ولأوَّل مرَّة، كانت فتاةً لا تُريدُ منه شيئاً سوى منحها لحظة حُبٍّ ولو في حُلمٍ جديد، فهل هذا بالمُستحيل عليه وهو الذي أحال حُلمها إلى واقع؟!

****

في هذه المرَّة طال غيابه، فلم تره قرابة سبعة أشهر، ومع ذلك كانت سعيدةً بقدر ما كانت حزينة. حاولت أن تختبر عشقها له وسعادتها معه؛ إذ غدا باستطاعتها مراسلته، فالآن باتت تملك رقم

هاتفه الخاصّ وعنوان بريده الإلكترونيّ وحسابه الفيسبوكيَّ، حتَّى عنوان الفندق ورقم الغرفة باتت تعرفهما، لكنَّ كبرياءها ظلَّ يقف لها بالمرصاد دوماً، لم ترضَ أن تُهانَ كرامتُها إذا ما بعثت له برسالةٍ قبل أن يُراسلَها هو. إنَّها لم تدرِ ما الفكرة التي سيأخذُها عنها إن هي صرَّحت بمشاعرها قبله، كانت تُريدُ أن تتأكَّد من حُبِّه لها أوَّلاً، فهي إن كانت مُتأكِّدةً من مشاعرها منذُ أوَّل لقاءٍ جمعهما في الحُلم الأوَّل إلَّا أن مشاعره بقيت مُبهمةً فضلاً عن رفضه البوح بها أو إظهارها أمامها.

عادت إلى أحلامها، فهي نافذتها الوحيدة التي من خلالها استطاعت أن تُحافظ على ما لم تستطع الحفاظ عليه في واقعها وعلى ما سلبته الحياة منها عنوةً. كانت الأحلامُ نافذتها للخروج من عزلتها ولترسمَ لها دروباً في الحُبِّ تسيرُ بها متى أرادت، ولكن حتَّى في أحلامها بخل بالعودة إليها، وحتَّى في أحلام اليقظة كانت تخشى أن تتمادى كي لا تسقطَ في الهاوية.

لم تجد أمامها سوى قلمها لتكتب، فاكتفت بسطرين فقط، كانت حائرةً لم تدر من أين تبدأ، تمنَّت أن تقتله فيها، مزَّقت ما كتبته إلى أشلاءٍ صغيرة، وهكذا استطاعت قتله في لغتها، وفي دفترها ذبحته وشيَّعته دون جنازةٍ تليقُ به. لقد باتت تكرهه كثيراً وتحقد عليه

أضعافاً، باتت تلعنه في كُلِّ مرَّةٍ تُطيلُ النَّظر إلى تلك السَّاعة الهرمة حيثُ بنت العنكبوت بيتها عليها، فتركتها تكبر وتنجب أطفالاً بعدد لحظات انتظارها له.

نامت وهي مُتعبةٌ تُتمتمُ باسمه، وهكذا حتَّى كرهته إلى درجة العشق الذي جمعها به، وها هو مازال يعيش بين شفتيها كُلَّما أطبقتهما همست باسمه.

****

حين وصلت إلى عملها صباحاً وجدت بانتظارها ذاك الذي لم يكن فارسها بل من كان عاشقاً أحبَّها أكثر من فارسها نفسه لكنَّها رمت حُبَّه عرض الحائط لتنهل عذاباً من أوهامٍ في الحُبِّ تعيشها:

- صباح الخير يا منى.
- أهلاً، ما الذي جاء بكَ إلى هنا؟
- أشواقي وحنيني! ألا تكفي؟
- لكنِّي أخبرتُكَ بأنَّ قلبي مرهونٌ لغيرك.
- لطيفٍ في أحلامك؟! أم لشخصيَّةٍ ابتدعتها في روايةٍ من رواياتِكِ القصيرة؟!

- لواقعٍ بات لي، لحُلمٍ تحوَّل إلى واقعٍ لذيذ، إلى بطل روايةٍ خلقته من أحرف فنضج وخرج من الورق لأعشقه أكثر من ذي قبل.

نظر إليها نظرةً حزينةً ذاتَ معنى، فهل يحقُّ له أن يبكيَ الآن بعد أن شيَّعت حُبَّه إلى مثواه الأخير؟ أيحقُّ له أن يبكيَ بعد أن رفضته للمرَّة العاشرة على التَّوالي؟ أيحقُّ له أن يبكيَ بعد أن طعنته بالخنجر ذاته من جديد؟ من هو هذا الفارس الذي ظهر فجأةً وبات أقرب إليها منه؟ من هو ليراه رجلاً مُنافساً شريفاً كما أراد لا طيفاً في الأحلام؟

وفي غمرة حديثهما المُتواصل ظهر فارسها من خلف شجرة الجوز شامخاً كالنَّسر، غاضباً كالأسد، هائجاً كالمُحيط. هو إذن لم يغفل عنها، بل كان يُراقبُها ليحميَها فتبقى ملكاً له كما كانت من قبل.

أمسكها من معصم يدها بقوَّةٍ وسار بها مسافةً ليست بعيدةً عن عيون مالكٍ الذي كان يُراقبُ ويستمع. لم تستطع أن تُفلتَ معصمها من يده الضَّاغطة عليها، كان كالإعصار في هيجانه، أسند ظهرها إلى الجدار حين وقف قبالتها ويده مازالت تضغط على يدها بقوَّة. رُبَّما كان يخشى هروبها غير المُتوقَّع، زفر بعصبيَّة وهي كانت كالبلهاء لا تفهم شيئاً سوى النَّظر إلى جمرة عينيه المُلتهبتين، لوَّح

بسبابته في الهواء مُحذِّراً إيَّاها من الوقوع في حُبِّ مالكٍ أو التَّحدُّث معه أو الوقوف معه حتَّى، فهو رجلٌ ويفهم ما يدور في خلد الرِّجال، ويعلم تمام العلم بأنَّ مالكاً لم يكن زميلها فحسب بل هو الحبيب والعاشق المحترف الذي لن يملَّ ولن يكلَّ إلَّا إن وصل إلى مبتغاه، ومنى فتاةٌ طيِّبة، فلرُبَّما في لحظة ضعفٍ سلَّمته مفاتيح قلبها، وهو إلى الآن مازال يرى أنَّ منى ملكه وحده وأنَّه هو الأحقُّ بها. لم يكن يُريدُ التَّفريط بحُبٍّ كهذا، أرادها أن تصبرَ قليلاً ليختبرَ مشاعره أكثر، ليرى إن كانت تصلح أن تكون واقعه بعد أن كانت جُلَّ أحلامه وأيَّامه.

قفزت دمعتها اللَّئيمة حين سألته بكُلِّ براءة:

- لمَ؟

فقط "لمَ؟" كان هذا سؤالاً وجيهاً. ماذا تعني له الآن ليقوم بما قام به؟ أهي حبيبته أم فتاة أحلامه؟

تفرَّس في وجهها قليلاً، وغاص في كحل عينيها، ثُمَّ ابتعد قليلاً وهمس:

- لا أدري.

ثُمَّ عاد واقترب قليلاً ومسح دمعتها الهاربة قائلاً لها بالحنان الذي اعتادت عليه في أحلامها:

- لا أُحبُّ رؤية الدُّموع المُنهمرة من عينيك الجميلتين.

ورحل كما جاء، غاب بين الزُّحام، ورغم أنَّها حاولت أن تستوقفَه لتفهمَ موقفه من حُبِّهما إلَّا أنَّه كعادته كان توَّاقاً للهروب أكثرَ منه للحضور، حاولت أن تُناديَه فيكون لها حبيباً لا يختفي كما عهدته. لعلَّ كلماته تحتاج عقد اجتماع للجامعة العربيَّة لتفهمَ ما يتفوَّه به، وهو ألم يكن عليه أن يفهمَ كم كانت تهواه؟ لمَ لم يُحادثها بحُبِّه؟

ما إن انتهت من صراخٍ خرج من أعماقها لفت انتباهها مالكٌ وهو واقفٌ تحت ظلِّ شجرة الجوز الوارفة الظِّلال مُستنداً بجذعه إليها وناظراً إليها نظرة المُودِّع.

وحين همَّت بالاقتراب منه كان قد فهم كُلَّ شيءٍ وابتعد خطواتٍ إلى الوراء تلتها خطواتٌ لا عدد لها، غاب عن ناظريها إلى الأبد، غاب من حياتها كما جاءها عابر سبيلٍ ورحل.

لكنَّ عابر السَّبيل الرَّافض للرَّحيل هو مشعل فارسها المغوار الذي ابتسمت لغيرته عليها ولاهتمامه بها، وفي لحظة تهوُّرٍ تأكَّدت إلى أيِّ درجةٍ يهواها، لكنَّه كان جباناً لا يعرف كيف يُصرِّحُ عن عشقه لها.

وهكذا قرَّرت أن تكتب له بدلاً من أن تكتب عنه، فماذا تُريدُ دليلاً أقوى من هذا الدَّليل على حُبِّه لها، وإن لم يُصرِّح علناً بمشاعره فهي لم تعد لها مُبهمة.

****

وحيداً كعادته في غرفته الكبيرة ذات الأثاث الفخم في مسقط رأسه دبي تذكَّر تلك الخائنة التي أفضت به إلى تلك الأحلام.

ما إن استلقى على السَّرير الكبير وعيناه نحو فضاءٍ مجهولٍ مُثبَّتتان حتَّى بدأ شريط ذكرياته يتسلسل في ذهنه ومن أمامه، وبدا يمرُّ وكأنَّه في سينما، بدأ يتذكَّر حين وثق بها وكيف وثق بها، تذكَّر كيف وثق بحُبِّ امرأةٍ أعطاها كُلَّ ما يمكن أن يعطيَه رجلٌ لامرأة، من حُليٍّ وسيَّاراتٍ حديثةٍ وعقاراتٍ كثيرةٍ ورصيدٍ كبيرٍ في المصرف، لم يبخل عليها بحُبٍّ أغدقها به. كيف لا وهي معشوقتُه الأُولى التي رُبَّما لن تكون الأخيرة؟!

ومع كُلِّ هذه الإغراءات خذلته وهربت إلى أحضان من هو أقلُّ منه مكانةً وجاهاً وشأناً، كيف له أن يُسامحَها على ما فعلته بقلبه؟! كيف له أن يسامحَ جميع نساء الأرض باعتباره كان يراها أهمَّ نساء الأرض؟! كيف له أن يثق بمنى من جديد وقلبه مازال يقتاتُ مع من رحلوا؟!

لقد أحبَّها حين كان فتىً صغيراً، وهي كانت تُثيرُ إعجابه بكُلِّ ما فيها، كالطَّاووس في غرورها تسير، وهذا الغرور قد أعجبه كثيراً دون أن يدرِي أنَّ العواقب ستجرُّه إلى عوالم الخيانة، إلى عوالم لا يستحقُّها.

وكبر حُبُّه مع الأيَّام، وأفصح لها عن مشاعره الجيَّاشة نحوها حين كان في الجامعة. لقد عاش أروع قصَّة حُبٍّ معها دون درايته بوجهٍ ثانٍ تملكه، ومع كُلِّ هذا الحُبِّ خذلته وضربت بحُبِّه عرض الحائط. لم يكن يعلمُ أنَّ تلك العيون الجريئة لم تعشقه يوماً، بل عشقت محفظته المُمتلئة، وسيَّاراته الفارهة، ومشاريعه التي لا تنفد.

فكيف لقلبٍ خُذِلَ هكذا أن يعودَ لعشقٍ جديد؟ وأنَّى له أن يعرفَ أنَّ منى تختلفُ كُلَّ الاختلاف عمَّن خانته؟ فمنى لم تقتحم حياته بقدر ما اقتحمت عالم أحلامه. وكيف لتلك الصَّغيرة الصَّامتة كعادتها أن تتسلَّل في جنح الظَّلام وتختبئ في حنايا أحلامه؟ كانت كالرَّصاصة الحيَّة التي اخترقت عالمه، فأحبَّها دون أن يراها واقعاً، كان ينتظرها في كُلِّ ليلةٍ كي تمنح ليالي وحدته الحزينة الدِّفء والأمان، لكنَّها كانت خجولة، تأتي حيناً وتغيبُ أحياناً.

لم يكن يعلمُ كُنهها، هل هي جِنّيّة جاءت لتُعوِّضَه عن خيانة تلك الحبيبة؟! أم هي حُبٌّ جديدٌ خجلٌ تسلَّل في هدوء اللَّيل بعيداً عن المُتطفِّلين كي لا يُوقظَ النِّيام؟!

وحده من كان يحقُّ له رؤيتها والاستيقاظ على مرأى من جمال ابتسامتها، ليتساءل في الدَّقيقة الألف ويُردِّد: من تكون؟

وها هي الآن تقتحم عالمه كما اقتحمت أحلامه، تلك التي اتَّسمت بالهدوء ذاته والتي كان الحياء يُزيّنها. في حضرتها يُهرولُ الكلام إلى المجهول، وفي حضرتها يختفي كُلُّ شيء، فتغدو لحظاتُ الصَّمت أبلغ من أيِّ كلامٍ. هناك حيثُ تعلو صرخاتهما سويَّةً في صمتٍ يشقُّ أنفاسهما، فيجأر أمامها كعادته لكونه الأسد في زئيره وهي القطَّة في ألفتها، حيثُ يُحملقُ بوجهها ويُراقبُ تقاسيم تلك العينين، فيُقسمُ آلاف المرَّات أنَّه رأى الجنَّة في عينيها العسليَّتين.

عادت به الذَّاكرةُ سنواتٍ إلى الوراء، رُبَّما ستُّ سنوات، وهي ليست بالقليلة، عاد من ليلته تلك وحيداً مُكتئباً جرَّاء خذلانٍ لا يُغادره، حيثُ كان الحنين إلى حبيبته على أشدِّه، فكيف له أن ينسى من كانت له دواءً ثُمَّ صارت داءً؟! كيف له أن ينسى من شاركته أدقَّ تفاصيل حياته؟! وكيف له أن يملأَ فراغاً في قلبه الهشِّ وهو ما قد خلَّفه غيابها؟!

غفا في تلك اللَّيلة قليلاً ليستريحَ من عبء الحياة حين رأى جمهوراً من النَّاس المُتجمهرين وكأنَّها مباراةٌ لكرة القدم، وحدها كانت تنظر إليه بابتسامتها الحزينة التي أصبحت عادتها مع الأيَّام، كانت تُصفِّقُ بهدوءٍ وخجلٍ على إيقاع أُغنيةٍ شعبيَّةٍ وهي ترتدي فستانها الورديَّ القصير ذا الأكمام القصيرة وبشعرها المنساب كشلَّالٍ رقراقٍ على كتفيها.

التقت العيون لدقائقَ، فأحسَّها ساعاتٍ، وهنا انتفض جسده وارتعشت أوصاله من جمالها الأخَّاذ ومن نظراتها الهادئة حتَّى لم يستطع أن يُبعدَ عينيه عن عينيها، بل بدأ يتأمَّلُ كُلَّ تقسيمةٍ في جسدها الغضّ.

لم يجد تفسيراً لحُلمه ذاك في تلك اللَّيلة الصَّيفيَّة الحارَّة، فقد ظنَّ أنَّه رآها في مكانٍ ما وزمانٍ ما وأنَّها علقت بذهنه لتتراءى له أميرةً في الأحلام، ومع ذلك كان حُلماً شهيَّ المُذاق.

ظلَّ شريطُ ذكرياته يدورُ كإسطوانةٍ قديمةٍ ليُعيدَ إليه أحلاماً عديدةً جمعته بها، وهو لم ينسها ولم يسمح لقلبه بحذفها، فهي كانت أجمل من أجمل واقع.

وفجأةً وقف شريطُ ذكرياته على ذلك الحُلم بعد مرور أشهرٍ على الحُلم الأوَّل، حيثُ رآها ترقص فوق النِّيران الهائجة كالأميرة

البجعة، وكانت حينها ترتدي ثوباً قرمزيَّاً بدانتيل أبيضَ على حوافِّه وتضع تاجاً مرصَّعاً بالألماس لتُزيّنَ به شعرها. انبهر من جمالها الذي فاق جمال الأميرات، وحينها كانت أميرةً فعلاً، كما انبهر من رشاقتها وهي ترقص في دائرةٍ من نار، كانت كراقصة باليه محترفة، ولم تكن مُجرَّد هاوية. حاول أن يقتربَ منها لكنَّ حرارة النِّيران أجبرته على الابتعاد عن ساحتها، كانت ترقص وعيناها لا تفارقانه ولا حتَّى ابتسامتها الجذَّابة، فلم ينسَ كيف استيقظ في تلك اللَّيلة وهو يتصبَّب عرقاً. رُبَّما حرارة النِّيران قد اخترقت حينها جسده لتستقرَّ به وترفع حرارته، فغدا بدوره مُنشداً حُبَّاً لا وجود له.

تساءل في سرِّه ألف مرَّةٍ: من تكون؟ من هي؟ ولمَ هي بالذَّات من يحقُّ لها العبث بأحلامه؟ هل القدر من بعثها لتنسيَه حُبَّاً قد هرب منه؟ أم لينسى ليالي وحدته الكئيبة؟

بحقِّ السَّماء، من تكون؟

وبمرور الوقت استطاع أن ينساها أو لعلَّه تناساها ليعيشَ في جوِّه الحقيقيّ، فهو إنسانٌ عمليٌّ واقعيٌّ يختلف عن منى التي تعشق الأحلام والغوص في الخيال، وهذا ما جعلها في خلافٍ دائمٍ معه.

مضت أشهر اختفت خلالها عن ساحته بينما كان خلالها يُطِلُّ في ساحتها، وهكذا مضت أشهرٌ عدَّةٌ واللُّعبة لم تنتهِ بعد.

كانت تلعب معه كما كان يهوى اللَّعب معها، كلاهما مُحترفان مُتقنان لعبة الأحاجي، إلى أن أطلَّت عليه في حُلمٍ جديدٍ لتُذكِّره بأنَّها ستكون له في الأحلام ولن تكون له في الواقع.

رقصا سويَّةً كعاشقين مُتيَّمين في رقصة ولهٍ لا تُنسى، كانت يده اليُمنى مُمسكةً بيدها اليُمنى برفقٍ أبويٍّ ويده الثَّانية على ظهرها العاري، كان يخشى مغادرتها قبل أن تحينَ السَّاعة الثَّانية عشرة والنِّصف كما حدث مع ساندريلا. ثوبُها كان ورديَّاً طويلاً يُظهرُ مفاتن جسدها، رقيقةً، جذَّابة، لكنَّها همست له بكلمةٍ لم يفهمها بسبب نبرة صوتها المُنخفضة، ثُمَّ رحلت. تركته جسداً بلا حراك، وغادرت ساحة الرَّقص، فما كان منه إلَّا أن حاول اللَّحاق بها؛ لأنَّه لم يرتوِ بعدُ من عشقها اللَّذيذ، لكنَّها كانت أسرعَ منه في الهروب والتَّخفِّي وكأنَّها سرقت عادته، فصارت عادةً من عاداتها.

أمَّا جمالها فهو غربيٌّ لا يُضاهى، كانت فتاةً من طيفٍ ونار، وبدت كجنِّيَّةٍ ترقص فوق النِّيران أحياناً وأحياناً أُخرَ تختفي كما جاءت دون أن يعرفَ من أين جاءت!

توالت الأحلام الغريبة، ومضت خمس سنين من الأحلام غير المحدودة، فكانت تبهره في كُلِّ يومٍ بحبٍّ جديدٍ وبرقصٍ جديدٍ وبدفءٍ جديد.

لقد استطاعت هذه الجنِّيَّة أن تنسيَه تلك الخائنة، كما نسيت منى علاقتها مع أحمدَ حين تغلغلت في أعماق الأحلام.

مرَّت سنواتٌ وهو يراها، تارةً يقترب منها وتارةً أُخرى تهرب قبل أن يمسكَها، تارةً يُقبّلُها وتارةً تختفي خلف السُّحب، وفي كُلِّ مرَّةٍ حُلمٌ، وفي كُلِّ حُلمٍ تظهر له من جديدٍ وبشكلٍ جديد.

كحوريَّة البحر الصَّغيرة رآها على صخرةٍ جالسةٍ وقدماها تُداعبان مياه البحر التي لا تنتهي، كانت تغمزُه بطرف عينها اليُسرى وكأنَّها تغويه ليلعبَ معها، كيف لا يقبلُ وهي الحبيبةُ الجنِّيَّة التي سلبته عقله في الأحلام قبل الواقع؟! لم يخف حين تقدَّم نحوها، وما إن حاول لمسها حتَّى قفزت في قاع المُحيط كسمكةٍ تعرفُ العوم في عالمها دون أن تدري ما هو عالمنا.

لم يستطع الصَّبر أكثرَ من ذلك، فماذا أرادت منه هذه الجنِّيَّة الصَّغيرة؟

أحضر المُفسِّرين من كُلِّ أنحاء بلاده ليُفسِّروا له حُلماً بات تفسيره مستحيلاً، لكنَّهم وبصوتٍ واحدٍ أجابوه بأنَّها أضغاث أحلامٍ لا أساس

لها في واقعنا، أو رُبَّما حاجته لحبيبةٍ قد آنسته في وحدته ودفعته لتلك الأحلام، لكنَّه لم يُصدِّقهم كمنى حينما كذَّبت أُختها وصدَّقت قلبها. كيف له أن يُصدِّقَ ذلك وهي نفسها تقفز إليه في أحلامه كُلِّها بلا استثناء؟! لقد كانت في عالمٍ ما، في مكانٍ ما، في زمانٍ ما، كانت في رحلة بحثٍ عنه، أو رُبَّما كانت في حاجةٍ إليه وإلى دفئه ورجولته وحنانه، ولكن حينما صارت واقعاً حرمها من كُلِّ ما تحتاجه.

وآخرُ تلك الأحلام وأجملُها كانت في مسقط رأسه دبي قبل أن يأتي إلى دمشق. رآها جالسةً على ضفاف نهر بردى وهي تبكي بحزنٍ وألم، لم يحتمل عينيها العسليتين وهما مليئتان بالدَّمع، مسحهما بكُلِّ حنانٍ وحُبٍّ، ورفع رأسها بكلتا يديه لتُواجهَه، ثُمَّ مسد على شعرها بكُلِّ دفءٍ، وجلس بجوارها على الضِّفَّة نفسها، فنظرت إليه بعينين مُثقلتين بالأحلام، وأعطته عقداً من الياسمين إلَّا أنَّه كان مُمزَّقاً، وقالت له:

- الرِّياح الهوجاء مزَّقت عقدي، فهلَّا تُصلحه.

سحب العقد من يدها وحاول أن يُعيدَ إليه الياسمين المُتساقطَ على الأرض، ولكن من يُعيدُ الحياة للياسمين وقد قُتل وجُرِّد من شجيرته البائسة؟!

لقد أعطاها الأمان حين جذبها إليه أكثر وقبَّلَ جبهتها الصَّغيرة، ثُمَّ قال لها بدفئه المُعتاد:

- سأصنعُ لكِ عقداً آخرَ من الياسمين الدِّمشقيِّ لتُزيّني به عنقكِ الصَّغيرة.

ومن ثمَّ انتهى ذاك الحُلمُ حال استيقاظه، فتذكَّر تفاصيل حُلمه بأكملها، وتذكَّر أيضاً كلمة دمشق. إذن هي من بلد الياسمين، ها قد عرف أخيراً بلد محبوبته.

وخلال أسابيعَ قليلةٍ كان في دمشق يبحث عن فتاةٍ كانت له في الأحلام حبيبة.

هي إذن في دمشق، وهذا ما عرفه! ولكن أين؟ ومن أين يبدأ البحث؟ وكيف يجدها ودمشقُ ليست بالمدينة الصَّغيرة؟

كان الأمل يحدوه كما كانت منى تعيش بالأمل، فكأنَّما يعرفان أنَّهما سيلتقيان في زمانٍ ما وفي مكانٍ ما من هذا العالم البائس.

لقد بدا رجلاً فعلاً حين بدأ أوَّل خطواته وقت استقلَّ تلك الطَّائرة مُسافراً إلى دمشق في رحلة البحث عن فتاةٍ تُوِّجت أميرةً له في الأحلام.

****

لم ينسَ ذلك اليوم حين تعلَّقت العينان ببعضهما، فاختلط سواد اللَّيل مع عسل الجنَّة، حينها طأطأت رأسها خجلةً بخلافه؛ إذ رفض إبعاد عينيه ليعرف لم كانت هي بالذَّات، وبصدفةٍ غير متوقَّعة رآها مُتمثِّلةً أمامه كحُوريَّةٍ من ذاك الحُلم خرجت.

هدوءُها أرعبه، وصمتُها سكنه، بينما نظراتُها أحزنته، وكُلَّما حاول أن يقتربَ منها خطوةً ابتعد خطواتٍ، وها هي بعد خمس سنواتٍ من اقتحام عالم أحلامه تقتحمُ بعفويَّة وبلا إرادةٍ عالمه.

وفي كُلِّ لقاءٍ كانا يجتمعان ويتحاوران بهدوءٍ والصَّمتُ هو ثالثُهما، وحين يتحدَّث يختصر من الكلام الكثير لتتحدَّث هي فيفشل، كان يُحاولُ إغضابها بشتَّى الطُّرق ليعرفَ كيف تتصرَّف حين تشتدُّ غضباً، فيُذهله هدوءُها الصَّاخب، ويُحاولُ أن يخونَها أمام ناظريها، فتتغاضى والدَّمعةُ على خدَّيها قد وجدت. كان يتحدَّث بفخرٍ عن عاشقاتٍ وهميَّاتٍ نسج قصصهنَّ من خياله، كيف أحببنَ جسده العاري وتمنَّينَ أن يُبقيهنَّ في فراشه لأطول مُدَّةٍ مُمكنة لكونه العاشق بلا حدود، لكنَّه يسكت حين تزداد دمعة عينيها بالانسكاب وحين يحمرُّ خدَّاها خجلاً من كلامٍ كهذا.

أهربت من أحمدَ لتحظى بآخرَ شبيهٍ له؟ إنَّه بخلاف هذا الأخير يُحاولُ أن يستنبط ما تُفكِّر به ليس إلَّا، وكُلَّما حاول أن يقتربَ منها خطوةً كانت تبتعد عنه خطوات.

كم تمنَّى لو يحظى بفرصة حضنها! لكان نسي نفسه وحملها مُجدَّداً إلى غمار الأحلام، ليُخلِّصها من عناءٍ هي فيه، لكنَّها مازالت تخشاه بقدر ما كان يخشاها، فلم تُفسح له المجال للمسها، وهو وإن كان طيفاً قبل أن يُصبح واقعاً يبقى رجلاً، وللرَّجل ميولٌ ورغبات.

كان يعلم أنَّها تخشاه وتخشى الرِّجال كافَّةً جرَّاء ما فعله بها أحمد، فكيف يُقنعها بأنَّه ليس كأحمدَ؟ هو فارسها في تلك الأحلام قبل أن يغدوَ رجلها في واقع سيغدو أروع من كُلِّ الأحلام.

لم يتَّصل بها ولو لمرَّةٍ واحدة، كان يكره التَّكنولوجيا ويعشق الرَّسائل الورقيَّة كثيراً، كان يُحبُّ المواجهة ليغوصَ في تلك العينين، فينهل منهما ما يُطفئُ ظمأه، ويستردُّ شجاعته ويتحدَّث معها مجدَّداً، ولكن عمَّا يتحدَّثُ وهو الذي كان يهرب من كلمات الغزل والحُبِّ حين يلمح صمت عينيها؟

إنَّ فكرة الوقوع في الحُبِّ مُجدَّداً كانت تُرعبه وكأنَّها قيدٌ يشدُّ بإحكام على رقبته.

وفي المقابل ما ذنبُها إن جاءها في زمنٍ خاطئٍ بعد أن سلخه الحُبُّ القديم وتركه مذبوحاً على رصيف العشق؟ ما ذنبُها إن جاءها وقد فعلت الخيباتُ به ما فعلت؟ ما ذنبُها إن جاءها وقد فرغ قلبُه من شيءٍ اسمُه الحُبّ؟ لقد استلمته خاوياً على عروشه لتبدأ بترميمه، أليس من الأولى أن تبدأ بترميم نفسها أوَّلاً؟

نهض من فراشه بعد أن فرغ شريط الذِّكريات من عرض الأحلام والذِّكريات جميعها، وجلس يكتب لها بدلاً من الكتابة عنها، فحبيبته من ذوات الخيال تهوى أبطال الرِّوايات وأبطال الأحلام، وقلَّما يروقُ لها أبطال الواقع:

"أيا حبيبةً غفا القمر في حضرتها..

مرَّةً تخرج كحوريَّة بحرٍ صغيرةٍ من قاع محيطٍ مجهولٍ، فتنظر بإغراءٍ شديدٍ إليَّ وكأنَّ امرأة العزيز تناديني: هيت لك..

ولكن –يا أميرتي– ما ذنبي إن كُنتُ أجهلُ السِّباحة وأخافُ أن تُدخليني إلى سجونٍ في أعماق المحيط موجودة؟!

إنِّي أخاف الولوج في عوالمَ لا أعرفها، لتعودي حزينةً إلى القاع من جديدٍ فيما لو لم تظفري بفارسٍ مثلي.

ومرَّةً تُبهرينني برقصٍ فوق النِّيران الهائجة.

تمدّين يدكِ لتسحبيني كي أُشاركِ الرقصَ فوق تلك النِّيران.
ولكن –يا صغيرتي– ألا تعلمين بأنّي أخشى النِّيران الهائجة!
ما أدراك؟ لرُبَّما كانت جائعةً فرغبت بجسدي كوليمةٍ سهلة الافتراس.
بالله عليكِ أخبريني: من أنتِ؟
هل أنتِ مزيجٌ من امرأةٍ من نارٍ وامرأةٍ من ماء؟
أخبريني يا حبيبةً بات القلبُ يهواها: كيف تمزجين بين الماء والنَّار؟
هل أنتِ آلهة؟
هل أنتِ طيف؟
هل أنتِ جِنِّيَّة؟ أم أنتِ ملاك؟
من تكونين؟
في حضرتكِ أُسكتُ جميع الأشياء لأسمعكِ أنتِ وحدك، فلا أسمع سوى صمت نايٍ حزينٍ لكنَّه صاخبٌ، صاخبٌ يا حبيبتي.
صمتُكِ يا ملاكي يُرعبُني، وهدوءُكِ يُبعدُني ويُقرّبني.
معكِ وحدكِ أُصبحُ شخصين، أحدُهما يعشقُ أميرةً في الأحلام ويراها ملاكاً في الواقع، وآخرُ خائفٌ من حُبٍّ يتراءى له من جديد.
من أجلكِ يا صغيرتي عشقتُ التَّضادَّ، والاقتراب، والابتعاد.
أهربُ منكِ، لأُهرولُ إليكِ.

أصمتُ وأتحدَّثُ، فأقول: أُحبُّكِ وأكرهُك.
هل تفهمين الآن أنَّكِ تعشقين ملكَ التَّضادّ؟
كوني إذن امرأةً جريئةً.
صرِّحي واصرخي.
أخبريني عن مشاعركِ التي تتضارب في فؤادكِ.
أطلقي العنان لمشاعركِ كي تصلَ إلى فؤادي.
ألا تعلمين يا صغيرتي في آخر لقاءٍ جمعنا أنَّكِ تركتِ قلبي وحيداً على قارعة الطَّريق؟!
كُنتُ حينها أحضرُ الكلام المُحرَّم على كُلِّ نساء الأرض ما عداكِ.
الكلامُ الذي أردتُ البوحَ به لكِ عن حُبٍّ استعمر فؤادي منذُ سنواتٍ لكنَّكِ رحلت قبل البدء، فبقي الكلام عالقاً في حنجرتي، وأنا ماأزال أنتظر لقاءً يجمعنا حتَّى أُخبرَكِ بما يعتري صدري من مشاعرَ خزَّنتُها لكِ وحدك.
أيا حبيبةً تمتهنُ الغياب..
سامحيني؛ لأنَّي لن أهواكِ كما تُريدين وتعشقين، فقلبي قد مات منذُ وقتٍ طويلٍ، ودُفِنَ في مقبرةٍ جماعيَّةٍ للخذلان.
وأمَّا جنازته فلم يحضرها أحد..
صدِّقيني قد مات وحيداً ودفنته بيديَّ دون أن يُشاركَني بعزائه أحد.

وقرأت له الفاتحة، ثُمَّ جلست أمام قبره ليالي وأنا أنتحب بمفردي".

****

لم تصلها تلك الرِّسالةُ التي سهر ليله بأكمله وهو يكتبها بمدادٍ لا ينفد بسهولة، لم تصلها لسببٍ بسيطٍ جدَّاً، وهو أنَّ فارسها استحوذ عليها؛ إذ منعته أنانيَّته من إرسالها، رُبَّما خوفه من اكتشافها لمشاعره نحوها كان السَّبب، أو رُبَّما خوفه من عشقٍ جديدٍ يُدمِّرُ حُلمه مرَّةً أُخرى، فكان إبقاؤها حُلماً أفضل، لعلَّها تكون ألذَّ وأشهى.

وهو أيضاً لم تصله أيُّ رسالةٍ منها، رُبَّما خافت أيضاً من الانجرار إلى ساحة حُبٍّ لن تجلبَ لها سوى الألم، وكبرياؤها أيضاً قد لعب دوراً مُماثلاً، فكان لها بالمرصاد. كيف لها أن تُفصحَ له عن مشاعرَ تجتاحها وهو إلى الآن لم يُخبرها من تكون بالنِّسبة له؟! أتراها كانت فتاة أحلامه؟ صديقته؟ بطلة كتاباته؟ أم لعلَّها حبيبته؟ أو رُبَّما امرأته المستقبليَّة؟ كان جباناً جدَّاً، كان أجبن من البوح بمشاعره.

هل كانت أميرته في أحلامه وأميرته في واقعه؟ أم في أحلامٍ مجهولةٍ لا سبيل إليها؟

إذن ما ذنبها إن كانت مُشتَّتةً وتائهةً بين محاولات والدها الذي مازال مُصرَّاً على إعادتها إلى بيت أحمدَ بعد الفضيحة التي تسبَّبت بها كما يدَّعي؟ هذه الفضيحة بلسان الرَّواي، ومن هو الرَّاوي غير أحمد الذي شهَّر بها لتعود إليه جُثَّةً على هيئة عروس؟! وهكذا كان والدها يُفكِّرُ بإعادتها كخطوةٍ أُولى مُرغمةً إلى منزل طفولتها.

في كُلِّ مرَّةٍ تراه كانت تُحاولُ أن تستوعبَ مدى عمق فؤاده الجريح وإن كان يتَّسع لأُخرى لا تخون! لقد حاولت أن تفهمَ محاولاته المُستميتة لاستفزازها، محاولاته الكثيرة للمسها، نظراته الجريئة المُتفحِّصة لكُلِّ خليَّةٍ من خلايا جسدها، حتَّى إنَّها لم تفهم صمته الدَّائم.

أهذا هو الفارسُ الذي دعت الله مراراً أن يأتيَها في الواقع؟!

أهذا هو الفارسُ الذي تمنَّت في كُلِّ مناسبةٍ حضرتها وحيدةً أن يكون رفيقها؟!

أهذا هو الفارسُ الذي دافعت عنه وعن حُبِّه فتلقَّت أقسى الكلام من والدها بسببه، حتَّى إنَّها تركت المنزل كُرمى له؟!

أهذا هو الفارسُ الذي جرحت كُرمى له مالكاً في قلبه ولم تُؤلمها دموعه المُنسابة؟!

أهذا هو الفارسُ الذي هربت مراراً من أحمدَ إليه وأقسمت ألف مرَّةٍ أنَّها لن تكون له؟!

أهذا هو الفارسُ الذي أجلسها ليالي تنتحب ولهاً وشوقاً وحنيناً وحُبَّاً؟!

أهذا هو الفارسُ الذي كتبت له دفاتر لا تنتهي حُبَّاً وعشقاً؟!

لقد أبى أن يأتيَها في الواقع كما رغبت وتمنَّت، بل جاءها شخصاً مذبوحاً لا قلب له.

أحلامنا تأتينا عادةً بما هو أجمل من واقعنا، وحين يصير الحُلمُ واقعاً يبدأ بدموعٍ لا حصر لها. كم من حُلمٍ تمنَّينا أن يغدوَ واقعاً، فإذا ما صار أيٌّ منها واقعاً عدنا نتمنَّى أن يعودَ حُلماً من جديد! أحلامنا نتوسَّدُها، نعيشُها، نُخبِّئُها عن عيون الحاسدين والحاقدين.

فلكُلِّ شخصٍ حياتان؛ حياةٌ يعيشها في واقعه كما يرغب له القدر، فيبكي وينتحب، يضحك ويفرح، وهو فيها مُسيَّرٌ ومُخيَّرٌ في آنٍ معاً. وحياةٌ أُخرى يعيشها بملء إرادته في أحلامه، وفيها يُتوِّجُ من يشاء بطلاً لقلبه.

تذكَّرت منى حكايةً سبق وروتها جدَّتُها حين كانت صغيرة، كانت تُجلِسُها في حضنها في كُلِّ ليلةٍ لتروي لها الحكاية ذاتها.

تتحدَّث الحكاية عن فتاةٍ صغيرةٍ طيّبةٍ لم تتجاوز عامها العاشر، كانت تقف في كُلِّ صباحٍ أمام نافذتها الكبيرة بعض الشَّيء لتُشاهدَ عصافير الصَّباح وهي تزقزقُ على نافذتها بألوانٍ سبحان من أبدعها! كانت تتمنَّى أن تُصبحَ عصفورةً مثلها، وأن تلتقطَ الحبَّ من يدي أحدهم وتشربَ من مائه العذب، وتطيرَ من دربٍ إلى آخرَ ومن شجرة تينٍ إلى شجرة زيتون، وأن تدخل سائر البيوت فتعرفَ أسرار العامَّة دون أن يُلاحظَ وجودها أحد، فهي عصفورةٌ صغيرةٌ ستكون، وفي أعالي الجبال ستستقرُّ، وفي السَّماء ستُحلِّق، وستبني لنفسها أعشاشاً كثيرةً في كُلِّ مكان.

إلى أن جاءت تلك الجنِّيَّةُ الصَّغيرة التي تُماثلُ الفتاة بالعمر ذاته. ابتسمت لها، وأدارت عصاها دورةً كاملةً لتُحوّلَها إلى عصفورةٍ جناحاها كقوس قزح، وقد وضعت تاجاً مُرصَّعاً بالياقوت على رأسها الصَّغير. وهكذا كان لها ما أرادت، فطارت إلى البعيد دون أن تسعَها السَّموات والأرض، وحلَّقت في كُلِّ مكان. لقد نسيت تماماً أنَّ للعصفورة أعداءً كُثرَ، ومنها الإنسان. وما إن توقَّفت قليلاً لتنهلَ من فيض ذاك النَّبع وترتوي من مائه العذب حتَّى جاءها صيَّادٌ عجوزٌ يهوى صيد العصافير الصِّغار لاسيَّما النَّادر منها، فاصطادها قبل أن تبدأ بأغاني المرح والفرح، وقدَّمها هديَّةً إلى الأمير الذي

وضعها بدوره في قفصٍ من ذهب، وقدَّم لها ما لذَّ وطاب.

ورغم ذلك توقَّفت عن الغناء وذبلت حتَّى كادت أن تموت، وهناك عاودها الحُلمُ من جديدٍ، عادت تتمنَّى أن تعودَ فتاةً كما كانت، تتمنَّى أن تُصبحَ عصفورة.

انتهت القصَّة هنا، وها هي منى قد عاودها الشُّعور ذاتُه، عادت تحلمُ به مُجدَّداً، ففارسُها في الأحلام أروعُ من فارسها في الواقع!

عادت تحلم بأن تراه ولو في حُلمٍ قصيرٍ كما اعتادت رؤيته دائماً، وهي لم تكن تعلم أنَّ حُبَّه سيقهرها إلى درجة التَّفريط فيه، وهذا ما كانت تُفكِّرُ به.

كم تمنَّته! كم ابتهلت لخالقها أن يجعلَه بشراً سويَّاً! فكان لها ما تمنَّت، إلَّا أنَّه كان لامبالياً إلى أبعد الحدود!

فماذا عليها أن تفعل بقلبها الذي هواه أضعاف ما هواها، قلبها الذي ما فتئ يذكره في الدَّقيقة اثنتي عشرة مرَّة؟

تنهَّدت بعمقٍ شديدٍ وتركت دفترها لتغطَّ في نومٍ عميقٍ مُتمنِّيةً أن يأتيَها في حُلمٍ جديدٍ يُخبرُها به عن اشتياق روحه لروحها، ولكن هيهات أن يأتي!

لقد غدا النَّوم أجمل ما يكون، وهو الذي أضحى عادةً من عادات منى منذُ أوَّل لقاءٍ التقت به بفارسها في الأحلام، والآن قد تلتقي به في المنام من جديد، فماذا تُريدُ من واقعٍ لم تحظَ فيه حتَّى بالسَّلام؟!

****

مرَّت اللَّيالي عليها كسلحفاةٍ هرمةٍ وهي تنتظر موعد دفنها، وبدأت صحَّتُها بالتَّدهور شيئاً فشيئاً؛ إذ ذبُلَ جسدُها وعادت الهالات السَّوداء لتظهر تحت جفنيها. كانت كوردةٍ جافاها السَّاقي فلم تُطالب بحقِّها من الماء، ورُبَّما عاد ذلك لفرط هجره الدَّائم أو لكثرة ما هرب من واقعها ومن أحلامها أيضاً. كانت تُفكِّرُ فيه وتتمنَّى وصاله ولو في حُلمٍ صغير، فكُلُّ همِّها أن يعودَ إلى ما كان عليه في أحلامٍ صغيرةٍ مُتقطِّعة، فيغيب متى ما شاء ويحضر حينما يشاء، لكنَّه في النِّهاية سيأتي ليُحيلَ ليلتها الصَّاخبة إلى ليلةٍ رومانسيَّةٍ من الدَّرجة الأُولى، وهذا جُلُّ أحلامها.

تفاقمت المشكلات بينها من جهةٍ وبين عناد والدها من جهةٍ أُخرى، هو كان مازال مُقتنعاً بضرورة عودتها إلى أحمدَ، ففكرة انفصالها عنه كانت في الأساس فكرةً خاطئة، ووالدها لم يكن

يُريدُها أن تنجرَّ إلى خطأٍ أكبرَ؛ إذ يكفي ما أصاب العائلة بسبب طيشها غير المُبرَّر، هذا ما يعتقده والدها، وهو إلى الآن لم يستوعب ما حصل لمنى في بيت ذلك الشَّاب الطَّائش، وها هي المُشاحناتُ تزداد كُلَّ يومٍ بسبب عناد الطَّرفين، فكُلُّ طرفٍ يرى أنَّ كلامه هو الصَّحيح، وهي ضائعةٌ بين الطَّرفين، أَتذهب إلى فارسها وتُخبرُه بما يحصل معها لعلَّه يُخبِّئُها بين حناياه كفراشةٍ تخشى العبث بها؟ أم تخشى رفضه لها وهو إلى الآن لم يبدِ استعداده لقول كلمة غزلٍ أو حُبٍّ في حقِّها؟ كم هو بخيلٌ هذا المشعل في عواطفه! كم هو بخيلٌ في مشاعره! فقط نظراته هي الصَّادقة في كُلِّ ما تراه.

خرجت في ذلك اليوم مسرعةً وهاربةً من واقعٍ سيُفرض عليها، كانت الدُّنيا بما فيها تفرض عليها القيود وتضيق بها أكثر ممَّا ضاقت، كانت تذهب إلى حديقتها التي شهدت وحدتها كما شهدت أحاديثَ صمتها مع الحبيب، وقد اعتادت دوماً رؤيته هنا حين يغيب وحين يحضر وكأنَّه يدري مدى عشقها لهذه الحديقة حتَّى قرَّر هو أيضاً أن يعشقَها لكونها معشوقة عشيقته.

رأته على ذلك المقعد الخشبيّ تحت ظلال الزَّيزفون وفي يده ورقةُ شجر صغيرةٍ سقطت فوق رأسه من أعلى الشَّجرة نفسها، فلم

يتحمَّلها وهي تسقط عليه، لذا صبَّ جام غضبه على الورقة؛ رُبَّما لأنَّه كان حانقاً على الحياة. لمحت الورقة وهي تُفتَّت بين أصابعه، وهو من قسوته المُعتادة لم يُبالِ بها ولم يرها وهي تحتضر ما بين الخنصر والبنصر. جلست بجواره لتستمع إلى صمته الغاضب، وانتظرت، ثُمَّ انتظرت، ولكن إلى متى؟ متى سيُعطي الأمر بإعدام الورقة؟ ثُمَّ رأتها تلفظ أنفاسها الأخيرة وهي مازالت مُتشبِّثةً بأصابعه، فرماها ودهسها بحذائه اللَّامع كي لا تُحاولَ استعادة أنفاسها مُجدَّداً. كُلُّ ذلك حدث قبل أن ينظرَ إليها بثوانٍ:

- كيف عرفتِ سبيلي؟
- رُبَّما هو إحساسي بحاجتكَ إلى من يستمع إلى أنين صمتكَ المُوجع.
- وما أدراكِ؟
- إذن، هو إحساسي بأنَّ هناك من سيسمعني ولو لمرَّةٍ واحدة.

التزم الصَّمت كعادته التي بات يستفزُّها بها كثيراً، رُبَّما كان يخشى بوحها بما يعتري صدرها من آلام كان قد سبَّبها لها، فيخافُ على نفسه من الضَّعف أمامها ويبوح هو أيضاً بحُبٍّ لم تكتب له الأيَّام الحياة بعد، ثُمَّ كسرت الصَّمت حين سألته:

- لمَ لم تعد إلى الأحلام؟ أنسيتَ من أين بدأت؟

- **ألم يعجبكِ أن تريني ماثلاً أمامكِ بصورة إنسانٍ بدلاً من بقائي طيفاً من خيال؟**
- **بلى، ولكن، كُنتَ في الأحلام أجمل، كُنتَ أروع، كُنتَ رجلاً، وأنا قد أحببتُكَ كما كُنتَ هناك.**

تفرَّس في ملامحها لجرأتها التي ظهرت فجأةً، وبعدها أسقط نظره إلى الأرض يائساً من وضعٍ لم يكن من وضع نفسه فيه، بل هو القدر من فعل ذلك، وقال:

- **لمَ؟ ألم أرق لك؟**
- **لن تفهمني أبداً، أنا ابنة الأحلام، ثلاث سنواتٍ انقضت وأنا أشتهيكَ في كُلِّ حُلم، انتظرتُكَ في كُلِّ ليلةٍ كي أرتدي لكَ أجمل الثِّياب التي اشتريتُها خصِّيصاً لك، كنتُ أتعطَّرُ بأروع العطور الفرنسيَّة رائحةً وأشهاها، وأحتضنُ صورةً رسمتُها بقلم رصاصٍ مكسورٍ وقت حلمتُ بكَ ذلك الحُلم؛ إذ كُنتَ على هيئة رجلٍ لا يُنسَى. كنتُ أكتبُ لكَ في كُلِّ ليلةٍ رسالة حُبٍّ أُخبرُكَ فيها بكُلِّ ما يجري لي من آلامٍ وأحلام، وأدفنُ نفسي في تلك الغرفة الباردة ذات الزُّجاج المكسور لأراكَ فتُدفئَ قلبي بدفء قلبك. ثلاثُ سنواتٍ مرَّت وأنا أرفضُ الواقع وأعيش على أمل لقياك، على أمل أن تقرعَ جرس بابي وتكون أنتَ الطَّارق. كُلُّ اللَّيالي كانت لك، وكُنتُ على موعدٍ معك، لكنَّكَ كُنتَ**

قاسي القلب كما أنتَ في الواقع، فتغيب أشهراً لتأتي ليلةً تبعث فيها في قلبي الحنين، ثُمَّ ترحل وتتركه خالياً على عروشه. بالله عليكَ من جعلك سيّداً على قلبي؟ من ائتمنكَ على جسدي؟ ومن أوصاكَ بالعبث بأحلامي؟ إنّي قبل أن أراكَ كُنتُ راضيةً مُقتنعةً بحياةٍ لم أخترها، كُنتُ سأحيا كما كتب الله لي، فهذه مشيئته ولا اعتراض عليها، هو قدري وسأعتاده شئتُ أم أبيت، بقناعتي أو رغماً عنّي، فهذا هو مصيري، إلى أن جئتَ وأشرعتَ باب الأحلام على مصراعيه، ثُمَّ وقفتَ بالباب كالمارد الجبَّار، وأزلتَ جميع التَّرسُّبات العالقة في ذهني، وأنا بالمقابل أزلتُ لكَ الورود جميعها لتبقى لكَ وحدك. أخبرني الآن من أنت؟ ومن تكون؟ ولمَ كُنتَ أنتَ بالذَّات من اختاره القدر ليلعب معي لعبةً بدأها في الأحلام وانتهت في الواقع؟ وبعد كُلِّ تلك الأحلام التي جمعتنا في عالمٍ شبيهٍ بحكايات ألف ليلةٍ وليلة تأتي إليَّ ببرودٍ لتُخبرَني بأنّي كُنتُ لكَ طيفاً وحُلماً على مدار خمس سنواتٍ، ومع ذلك لم تفعل شيئاً سوى الصَّمت ومن ثمَّ العودة إلى الهجر من جديد، وبعد أشهرٍ عدَّةٍ تأتي إليَّ بقلبٍ باردٍ كالثَّلج قاسٍ كصَّخرةٍ صمَّاء.

ارحل يا عزيزي، وعُدْ إليَّ بحُلمٍ جديدٍ وحُبٍّ جديدٍ وذاكرةٍ جديدة، ولكَ منّي وعدٌ بأن أستقبلكَ كما في كُلِّ مرَّة، ثُمَّ إنّي سأفتح للحُبِّ الأبواب

جميعها، لكنّي لن أكون لكَ سوى في أحلامٍ مبعثرة؛ فموعدُ جنازتي الثَّانية قد حان، ولا مناص من الهرب.

شكراً لكَ على تلك السَّنوات الثَّلاث من الحُبّ.

شكراً لكَ على تلكَ السَّنوات الثَّلاث من الأحلام.

شكراً لكَ على خيباتٍ صنعها جبنُك!

كان ضعيفاً جدَّاً ويائساً إلى درجة الصَّمت الشَّديد دون أن يهرعَ إلى ضمّها وإخبارها بأنَّ ما باحت به هو الكذبُ بعينه، فهي مازالت فتاته التي رآها في أحلامه أميرة، فكيف له أن يُفرّطَ بهذه الأميرة؟!

كُلَّما أمسكَ يدها أفلتتها منه، وانتزعتها بقسوةٍ فاقت قساوته. أفلتت يدها من يده التي كانت باردةً في هذه المرَّة لترحل هاربةً بدموع تجمَّعت في مُقلتيها تسألها عن سبب آلامها ورُبَّما تُصبّرُها على حبيبٍ بات الهجر من شيمه، ولكن أنَّى للدُّموع أن تُصبّرَها وهي التي تهوى الانسكاب بغزارةٍ إثر كُلِّ مشهدٍ تراه يشعُّ حزناً ويعتصرُ ألماً.

وغابت منى خلف سور الحديقة كما جاءت، وتركته شبحاً دون قلب. رُبَّما هي من انتزعت قلبه، ورُبَّما جاءته وقلبه لم يكن في مكانه، ولكن ما ذنبُها إن كانت أيضاً مذبوحة الفؤاد؟!

هل سيُبادرُ مشعلُ إلى احتضان منى وسرقتها بعيداً أم أنَّه سيتركُها وحيدةً لتُواجه قدراً كُتبَ عليها ولا فرارَ منه؟

****

أغلقت باب غرفتها خلفها ورمت بجسدها المُثقل بهموم الأيَّام على السَّرير باكيةً، بكت كثيراً، وشدَّت قبضتها على الوسادة وشهقت وكأنَّها ابتلعت أحزان مدينة بأكملها، فالفراقُ مُؤلمٌ والنِّسيانُ أنَّى له أن يزورَها! ومهما كان الفراقُ باختيارنا فهو مُوجعٌ ومُؤلمٌ كحدِّ السَّيف حين يُلامسُ أجسادنا.

كم تمنَّت أن تتجرَّأ لتُخرِجَ ما في روحها من مشاعرَ مُخزِّنة! لم تكن تعلمُ أنَّ الجُرأة حين تُواتيها ستُعلنُ فراقاً أبديَّاً.

مسحت تلك العَبَرَات، وقرَّرت أن تكتبَ وللمرَّة الأخيرة، إنَّها ستُشيّعُ حُبَّه لآخر مرَّة، وستُودِّعُه هنا بدلاً من وداعه هناك، فهنا ستنطقُ الكلمةُ عنها، وهنا ستراه وستشعرُ بحزنه الذي كاد يقتلها. أمَّا هناك فلن تكونَ سوى إنسانٍ بلا مشاعر. ستكتبُ له الآن، الآن فقط، وبعدها ستستسلمُ وسترفعُ الرَّاية البيضاء لجنازةٍ لائقةٍ بها حين يحظى بها آخرُ لطالما مقتته، وسيفوزُ ذاك بالمزايدة المُعلن عنها.

وهكذا شيَّعت حُبَّها الذي لطالما أمتعها:

"أَتدري ما هي الخيبةُ يا حبيبي؟
دعني أقل لكَ يا عابرَ سبيلٍ أحببتُه: الخيبةُ هي أن تكسرَ فوق رأسي زجاجةً أبعدتُها عنكَ مراراً كي لا تجرحك!
أَتدري ما هي الخيبةُ يا عزيزي؟
الخيبةُ أن أحلم بكَ في كُلِّ ليلةٍ، وأتمنَّاكَ فيها، وأرقصُ معكَ ونحن نحتضنُ بعضنا كفروع الأشجار، وحين تأتي تأتي بقساوة الصَّخر الأصمِّ.
أَتدري ما هي الخيبةُ يا فارسي؟
هي أن أكتبَ لكَ في كُلِّ ليلةٍ، وأناديك فيها، وأرسمَكَ كُلَّما سنحت لي الفرصة.
الخيبة أن أُوزِّعَ الأدوار، فأمنحُكَ دور البطولة، وحين تأتي لا تمنحُ نفسكَ إلَّا دوراً ثانويَّاً.
الخيبةُ هي أن يُحبَّني غيرُكَ أضعاف حُبِّي لكَ وأضعاف حُبِّكَ لي، فأطعنه آلاف الطَّعنات لأبقى أسيرةً حُبِّكَ أنتَ وحسب.
هل تعلم عدد المرَّات التي نمت فيها وأنا أُخبِّئُكَ بين ضلوعي حُلماً لا ينتهي؟!
أَتدري كم مرَّةٍ همستُ باسمكَ في ليالي الحنين الكثيرة؟!
أَتدري كم مرَّةٍ وددتُ أن أصرخَ أمام العالم أجمع هاتفةً بُحبِّك؟!

حُبُّكَ مُحرَّمٌ يا فارسي. هو حُبٌّ في الأحلام قد بدأ، وعلى الورق نضج، وفي الواقع انتهى.

أَتدري كم مرَّةٍ صرختُ باسمكَ وأنا مذبوحةٌ بألم الحنين إلى طيفٍ كُنتُ أظنُّ أنَّه سيبقى في الأحلام ولن يخرج إلى واقعي؟!

نعم يا سيِّدي..

من أنا ليعشقني شخصٌ مثلك؟!

لم أعرف أنَّكَ ستبقى حُلماً، ولن تكونَ واقعاً أبداً.

قد حلمتُ بكَ كثيراً حتَّى نسيتُ أنَّ أمثالكَ لا تُعجبُهم سوى الأحلام.

فطيفٌ مثلُكَ له القدرةُ على العبث بأحلامي كما له القدرةُ ذاتُها على العبث بأيَّامي.

لن تُعجبَ بي، لكنِّي كُنتُ ساذجةً حين صدَّقتُ أحلامي وتبعتُها.

أنا امرأةٌ في عقدها العشرين، مُطلَّقة، منفيَّةٌ في سجنٍ باردٍ صنعته بنفسها، يائسةٌ من حياةٍ ليست ملكها. وفي شعرها بضعُ خصلاتٍ قد شابت جرَّاء ما تعرَّضت له من عذاباتٍ نفسيَّة، وتحت جفنيها هالاتٌ سوداءُ قد تشكَّلت.

فمن أنا لتُعجبَ بي وأنتَ الفارسُ ذو الشُّعلة المُتَّقدة، ذو العينين السَّوداوين كظلام ليلٍ غاب عنه القمر؟!

سأظلُّ حبيسة الأحلام يا سيدي، وستكونُ حبيس الأحلام مثلي.

فلا فرارَ منِّي.
كُلَّما أتيتَ إليَّ ليلةً سآتي إليكَ ليلتين، إحداهما من أجلي والثَّانيةُ من أجلك.
سأُعانقُكَ بدفءِ أُمٍّ رأت وليدها للتوِّ بعد أن أُشيعَ خبرُ موته.
وسأُقبِّلُكَ كطفلةٍ أعطيتَها نقوداً لتلعب بأرجوحةٍ صغيرة.
سأعدو لتعدوَ خلفي، ولن أتوقَّف عن العدو.
سأختفي مثلكَ، فأنا قد تعلَّمتُ منكَ لعبة (الغميِّضة)، وسأُمارسُها بإتقان.
حينها ستعودُ إليَّ في لقاءٍ جديد، وفي واقعٍ جديد، لكنَّكَ حينها لن تجدني، ولن أكونَ لكَ.
ستبحثُ عنِّي مُجدَّداً، وستُفتِّشُ الحواري بحثاً عن فتاةٍ أضاعها قلبُك.
ستسألُ عنِّي كثيراً، ولن تملَّ حتَّى تلتقي بي مُجدَّداً.
حينها ستراني بصحبته، وسترى يده في يدي.
سيلتقي عسل عينيَّ بليل عينيك، وسأُخفضُ ناظري احتراماً لرجلٍ أسيرُ بجواره. أمَّا عنكَ فستُطيلُ النَّظر إليَّ حتى أختفي عن مرأى ناظريك.

ستضربُ جبينكَ بيدكَ وستلعنُ نفسكَ اللَّعنة الألف بعد المئة؛ لأنَّكَ أضعتني!

وإن سألتَ نفسكَ جيّداً، فابحث عنّي.

ابحث عنّي في آخر مقبرةٍ دفنتَني فيها، حيثُ دفنتَني دون أن تبالي بحجم الآلام التي تراكمت عليَّ.

ابحث عنّي في مقبرةٍ تُدفنَ فيها الأجسادُ فقط، فلرُبَّما كان القلب مازال على عهد حُبّكَ وفيَّاً".

****

كانت الأيَّام تقترب سريعاً من موعد ذبحها، فبدت كنعجةٍ صغيرةٍ شامخة.

في هذه المرَّة استسلمت ورضيت بما كتبه لها القدر، فلا قوَّة لديها لتغيير مجراه، لكنَّها بقيت مُتشبّثةً بأملٍ واحد، وهو أنَّ ثمَّة قوَّةً إلهيَّةً ستحتضنُ عجزها وخوفها، وستُسخّرُ القدر ليغدوَ في مصلحتها، فآمنت أنَّ كرامتها لن تُهانَ مرَّةً أُخرى.

اتَّخذت قرارها بأنَّها لن تعطي جسدها لأحمدَ كي ينهشَ منه كما يحلو له، فهي الآن أقوى ممَّا يظنُّون. قرَّرت أن تدعَ المركب يسيرُ كما يُخطِّطُ والدُها وأنَّها في اللَّحظة الأخيرة ستصرخُ بملء فيها

مُعلنةً رفضها هذه المسرحيَّة الهزلة وأنَّها لن تُتوَّجَ بطلةً فيها، كما لن تدعَ أيَّ أحدٍ يقوم بتتويج أحمدَ بطلاً بجانبها، فهي إمَّا أن تكون لفارس أحلامها وإمَّا أنَّها لن تكونَ لأحد.

راقبت تلك السَّاعة اللَّئيمة وهي تدقُّ في موعد فراقها ذاته، عند السَّاعة الثَّانية عشرة ظهراً وعند منتصف اللَّيل في تمام السَّاعة الثَّانية عشرة راقبتها وهي تدقُّ، ومع كُلِّ دقَّةٍ منها كان قلبُها ينبضُ ألماً على حالٍ ستصل إليها قريباً! بدت السَّاعةُ وكأنَّها تدقُّ على قلبها الهشّ، وفي كُلِّ ساعةٍ تمضي يُخيَّلُ إليها أنَّها تسرقُ عُمراً كاملاً من أحلامها معها.

كُلَّما حاولت أن تنساها عاودت السَّاعة كما في كُلِّ مرَّةٍ وكأنَّها تهزأُ بأحلام منى. ظلَّت تدقُّ في موعد فراقها وموعد ذبحها وكأنَّها تُذكِّرُها بموعدٍ لن تنساه.

باتت تُدرِكُ جيّداً حقيقة انتهاء الأحلام، فزمنُ الأحلام قد ولَّى، وموعدُها الجديدُ لن يكونَ في أحلامها، فتلك المواعيد انتهت صلاحيَّتها. هي الآن على موعدٍ جديد، موعدٍ ليس للحُبِّ مكانٌ فيه. هي على موعدٍ مع ألمٍ جديد، أو رُبَّما الألمُ القديمُ ذاتُه عاود الظُّهور مُجدَّداً. هي على موعدٍ مع جنازةٍ جديدة، ثمَّة قبرٌ سيُضافُ

إلى رصيد قبورها، والجلَّادُ والسَّجَّانُ لن يتغيَّرا ما دامت الضَّحيَّةُ لم تتغيَّر.

لكنَّها لن تسمحَ بحفر القبر ذاته من جديد، ففي هذه المرَّة ستُحاكمهم على جرائمهم كُلِّها بحقِّ أُنوثتها وبحقِّ آلامها وأحزانها.

وستصرخُ أمام الملأ ممَّن سيحضرُ خصِّيصاً ليحضرَ جنازتها المُتكرِّرة، ستُخبرُهم بأنَّها ضحيَّةٌ ولا تُريدُ في بنصرها ما يُقيِّدُ أحلامها. هي ليست لأحدٍ، وهي لم تعد سلعةً تُباعُ وتُشترى، وكُلَّما رفع سعرها قلَّ عدد المتنافسين حولها.

قد بات من حقِّها اليومَ الرَّفض، وهي لن تدعَ أحداً يُساومُها على حقِّها.

****

وجاء ذلك اليوم..

****

امتلأت الصَّالة بالأقارب والأهل والجيران والمعارف، حيثُ كان الكلُّ في أبهى زينة لا سيَّما الفتيات ممَّن جئنَ ليُنافسنَ العروس في جمالها.

من الحاضرين من كان سعيداً لأجلها لدرجة الابتسامة لها كُلَّما سنحت لهم الفرصة بالنَّظر إليها؛ لأنَّها ستعود إلى زوجها السَّابق كما خرجت من عنده طاهرةً نقيَّةً لم يمسسها بشر، ومنهم من ينظر إليها نظرة حقدٍ وحسدٍ لأنَّ لها زوجاً كأحمدَ لا يعرف العيش ولا طعم العيش دونها. هكذا يظنُّون يا لسذاجتهم! وهي تعتقد أنَّ زوج جواربَ تلبسه أفضل من هذا الزَّوج.

ارتفع صوت الأغاني ليملأَ أرجاء القاعة، فبدأ الكُلُّ بالرَّقص في فرحٍ وسرورٍ على إيقاع تلك الأغاني، بينما أمعنت منى النَّظر إلى الجميع وهي لم تدرِ لمَ الكُلُّ سعيدٌ ما عداها! رُبَّما كانت تنتظره، قلبُها قد أخبرها بأنَّه بات قريباً منها وسيكون لها موعدٌ معه، ولكن ما أدراها؟ قد يُعاودُ الظُّهور في تلك الأحلام مُجدَّداً.

لقد ارتفع مهرُها في هذه المرَّة أضعافاً مضاعفةً عن المرَّة السَّابقة كي يضمن والدها ألَّا تعود إليه ثانية دون أن يكترثَ

لسعادتها أو تعاستها، همُّه الوحيدُ كان النُّقود التي باتت تُدفئُ خزينته ومشاريعه القادمة.

أمَّا أحمد فقد كان وضعه مختلفاً؛ إذ دفع تلك الأموال وهو سعيدٌ لا يُبالي. إنَّه سيحظى بها للمرَّة الثَّانية وسيستطيعُ إهانتها كما يحلو له، فوالدها في هذه المرَّة سيذبحها كالشَّاة إن هي قرَّرت الانفصال، وستبلعُ الموس على الحدَّين راضيةً بإهاناتٍ وبواقعَ سيُفرضُ عليها عنوة.

وحدها أطالت النَّظر إلى ساعة الحائط التي كانت قبالتها تسخر منها ومن أيَّام ستمرُّ عليها! لمَ على كُلِّ الجدران وُضعت ساعاتٌ شتَّى؟ لكأنَّهم أرادوا أن يهزؤوا بجراحها وهم يعلمون أنَّها تمقتُ السَّاعات مقتاً شديداً. أرادوا أن يُذكِّروها دائماً بموعدٍ مع الجراح لا ينتهي. وهكذا مضى الوقت ومنى لم تُزح نظرها عن السَّاعة، ومع كُلِّ دقيقةٍ مرَّت كانت تتمنَّى أن يُغيَّرَ قدرُها قبل أن يُغيِّرَ خاتمُ الزَّواج مكانه.

ووحدها كانت تنظر إلى مقعد عريسها الفارغ بجانبها وتتخيَّلُ فارسها مشعل جالساً بجوارها. فكَّرت في ما كان يفعله في ذلك المساء، هل سيأتي في لحظة النِّهاية ليحملَها كما الأفلام على جوادٍ أبيضَ وفي يده سيفٌ ليُقاتلَ كُلَّ من يقترب منها؟ هل سيأتي

ليحميها من كوابيس ستسيطرُ عليها؟ هل عادت إليه في الأحلام؟ أمَّا عنها فلم تعد تراه ولو في حُلمٍ قصير المدى. لقد تمنَّت لو أهدته من قبلُ ساعةً كتلك السَّاعة الجداريَّة كي يأخذَها أينما ذهب أملاً في ألَّا ينسى أنَّ مواعيده معها لا تنتهي بعدد الأحلام، وإنَّما تستمرُّ وإن انتهت الأحلام.

كم اشتاقت لعينيه الجريئتين اللَّامعتين كسواد اللَّيل! ها هي باتت تخون أحمدَ في اشتياقها لذلك الفارس الغائب قبل وضع ذاك الخاتم اللَّعين في بنصرها، فماذا لو تمَّ وضعه وانتهى الأمر؟! بلا ريبٍ ستخونه في اليوم آلاف المرَّات لعلَّها تشفي غليلها منه، سيحتلُّ جسدها عنوةً شاءت أم أبت، لكنَّ قلبها لم ولن يكون له، بل سيكون للأجدر منه؛ لأنَّه من يستحقُّه.

****

توقَّفت الأغاني فجأةً لتُعلنَ دخول عريسها الميمون إلى قاعة الزِّفاف، فأخذوها من يدها مُرغمةً لتستقبلَ سيِّدها ووليَّ أمرها الجديد كما فعلوا سابقاً، فهم يُكرِّرون الأمر عينه، وكالشَّاة التي تُساقُ إلى المذبح استقبلته بحزنٍ يعتصرُ قلبها وبصمتٍ بالغ الأسى أيضاً.

رفع طرحتها النَّاصعة البياض ليُقبِّلَ جبينها وابتسامةُ النَّصر تعلو شفتيه، فمسحت مكان قبلته مُتقزِّزةً منه، ولكن لم تتمكَّن من التَّملُّص منه. لقد اعتقدت أنَّها ستمنعه من لمس راحة يدها وأنَّها لن ترضى أن تكون معه، بينما كان لا مُبالياً بحزنها كعادته، بل تأبَّط ذراعها عنوةً وسارا باتِّجاه مقعديهما الذَّهبيَّين.

على المقعدين المُخصَّصين لهما جلسا سويَّةً، في هذه المرَّة كان ينظرُ إليها بشغفٍ مُبالغٍ به إلى حدٍّ ما، رُبَّما هو حُبٌّ جديدٌ فعلاً. نحو كُلِّ قطعةٍ من جسدها عيناه امتدَّت، بينما نظراتها لم تتعدَّ راحة يدها التي لمسها قبل قليل، فهل أمسك بها وتحسَّسها بحنانٍ أو بشهوة؟ لم تدرِ! أرادت الصُّراخ في وجهه كي يكفَّ عن نظراته الوقحة تجاهها، وليكفَّ عن نظراته المُتفرِّسة، لكنَّها صمتت، ثُمَّ صمتت، ثُمَّ صمتت. ووحده الصَّمت كان صديقها وعونها في أزماتٍ عاشتها من قبلُ، وستعيشها فيما بعد.

حضر الشَّيخُ الجليلُ بردائه الأبيض المُتواضع، كان وجهه يشعُّ نوراً وفي يده دفترٌ كبيرٌ أكثر من دفترها الذي كانت تكتمُ فيه حُبَّها. جاء في تلك اللَّيلة بالذَّات ليكونَ الشَّاهد الأوَّل على ذبحها، أو الأجدر أن نقول إنَّه قد جاء لذبحها، بينما البقيَّة سيساعدونه على إتمام مُهمَّته بنجاحٍ ودون أن يُكلِّلها فشل.

بدأ يتلو آيات النِّكاح بصوته الدَّافئ وكأنَّ الله –وحاشا لله– أن يكون هو من أمره بهذه المذبحة. كادت تصرخُ في وجهه ووجوه البقيَّة أن يكفُّوا عن نفاقهم ذاك ويرأفوا بحالها فينهوا تلك المهزلة المُؤلمة في حقِّها، ولكن ما من سامعٍ لنداءات قلبها.

تجاوز قلبها دقَّات تلك السَّاعة الهرمة بنبضاته المُتسرِّعة والعنيفة، فكَّرت أن تصرخَ حين يسألها عن رأيها بـ (لا)، فكَّرت أن تخبرَه بكُلِّ شيء، فهو سيتفهَّمُ أنَّها مُجبرةٌ، وحينها سيُوقفُ مهمَّته وسيُعلنُه زواجاً باطلاً، وستبكي.. ستتوسَّلُ ليُحرِّرها من قيدٍ قد التفَّ حول عنقها عنوةً، لن يُجبرَها أحدٌ في هذه المرَّة، فهي قويَّةٌ وتستطيع الصُّراخ أمام تلك الحشود الملبِّية لنداء ذبحها.

****

ومن بين تلك الجموع المُحتشدة وحده من أحسَّ بدمعتها قبل أن تسيل وتستقرَّ على الأرض، وحده من أحسَّ بألمٍ نبع من قلبها وارتسم على ملامحها، استمع إلى صراخها المُؤلم المُنبعث من صمتها القاتل، وسمع وهو في آخر القاعة نبضات قلبها وهي تنطق باسمه، حتَّى إنَّه لمح دمعتها التي حاولت جاهدةً إخفاءَها، فلم تفلح. لقد لمح دمعتها وهي مقيمةٌ في مُقلتيها

الصَّغيرتين، ورأى لؤلؤتي عينيها العسليَّتين تلمعان كالشَّمس في مشرقها.

كان الأجدر والأحقَّ بها من غيره، وهم لن يسرقوها منه مستشهدين ببعض آياتٍ قرآنيَّة، فالله لم يأمرهم بذلك، ولن يدعهم يُتمِّمون ما بدؤوا به.

كيف يُطاوعُه قلبه على سرقة صغيرته منه؟ معنى ذلك أنَّه لن يرها ولن يستمع لصمتها، لن يرى العسل في عينيها، ولن تأتيَ إليه في الأحلام، لن تكونَ له لا حُلماً عابراً ولا في واقعه.

وحين سألها الشَّيخُ الذي جاء لأمرٍ كهذا عن رأيها صمتت وهي تُحضِّرُ في ذهنها إجاباتٍ عديدةً مُتناقضة، وبينما كان كُلُّ من في القاعة ينتظر إجابتها بالقبول كانت في حيرة، لقد احتارت بين إجاباتٍ عدَّة! وفجأةً ظهر من يكسر الصَّمت ومن يُريحَها من عبء الإجابة حين جاءها ليُخبرَ الشَّيخ بأنَّها ترفض مأتماً كهذا.

وجذبها من راحة يدها الصَّغيرة بحنانٍ أبويّ تاركاً الكُلَّ في ذهولٍ غيرِ مُتوقَّعٍ بمن فيهم هي التي كانت في أشدِّ سعادتها كما كانت في أشدِّ حزنها.

وفي تلك اللَّحظات ولأوَّل مرَّةٍ تترك العنان لدمعتها بالانسكاب أمام أحدٍ دون أن يلفَّها الكبرياء، وبابتسامةٍ صغيرةٍ ارتسمت على

شفتيها الورديَّتين أعلنت بفرحٍ قبولها حُبَّاً جديداً طرق بابها، وها هي تفتحُ له الباب دون أن تسألَ عن هويَّة الطَّارق.

ساد الهرج والمرج أرجاء القاعة وراح الكُلُّ يتساءلُ: من ذا الذي يحقُّ له فعل هذا واقتحام الصَّالة ليوقف الفرح بأسبابٍ لامنطقيَّة.

جاءه والدها مُسرعاً يستفسر عن القادم الجديد بعد أن هدَّأ من روع أحمدَ ليستطلعَ ما يحدث من أمورٍ في تلك القاعة الضَّخمة، كان يستشيطُ غضباً، وحال أحمد لم يكن أفضل من حاله، لقد غضبا جرَّاء تمثيليَّةٍ هزيلةٍ حصلت أمامهما للتوِّ. ها قد عرف أحمدُ الآن من هو الحبيبُ المُستقبليُّ لمنى.

جذبه من ذراعه بقوَّةٍ ليفهمَ من يكون وكيف يجرؤ على فعلٍ كهذا أمام الجميع، ويُوقفَ فرح ابنته بهذا الشَّكل! ولكن سرعان ما عرف مشعلُ ماهيَّة تفكيره التي تدور حول جمع أكياسٍ من المال، فقدرتُه الماديَّة تفوقُ أضعافاً مضاعفةً قدرة أحمد.

التمعت عينا والدها حين أخبره بمهرها الذي فاق مهرها من أحمد أضعافاً، فكيف لا يقبل إذن وهو الذي جعل المال إلهاً له يعبده؟!

وافق دون تردُّدٍ على عقد قرانهما، وكان الشَّيخ مازال واقفاً مُنتظراً أن يعرفَ من سيكونُ العريس ليستكملَ عمله.

انفجر أحمدُ غضباً، وخرج من القاعة وهو يتوعَّدُ ويُهدِّد، خرج مع عائلته وأقاربه مُسرعين. كيف لا وهي كانت قاب قوسين أو أدنى منه وفي طرفة عين كادت أن تصبح له زوجة؟!

وبدأ الحفلُ مُجدَّداً بعريسٍ مُختلف، بحبيبٍ جديدٍ أطلَّ على ساحتها بعشقٍ ليس له مثيل.

أمسك يدها بابتسامةٍ أشعَّت نوراً كاد يُذيبُ بها قلبها.

وهنا انتهى عقدُ القران، وها هو كان رجلاً بحقٍّ! لقد أحال أحلامها واقعاً أشهى وأجمل، واقعاً اختاره هو حين قفز إلى أحلامها عنوةً، فأحالَ صحراءَها القاحلة رابيةً خضراء.

أمسكَ كُلٌّ منهما بدفتر الآخر ليقرأا على ضوء المرايا المُهشَّمة ما كتبه كُلٌّ منهما عن الآخر.

والابتسامة تعلو شفاه كلا الطَّرفين.

تمَّت بعونه تعالى

٢٠١٧/٧/٢٩

من رحم الألم يُولدُ الإبداع